الفصل الثاني

ركائز الثقافة الإسلامية

المبحث الأول ـ الإيمان والعقيدة

المبحث الثاني ـ التشريع ومصادره

أ ـ القرآن الكريم

ب ـ السنة الشريفة

المبحث الأول

الإيمان

الإيمان بالله تعالى أساس شخصية الأمة المسلمة :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾[1] .

إن الإيمان بوجود الله ووحدانيته وتفرده بالخلق أساس الشخصية الإسلامية وسر قوتها وقوام حياتها ومفتاح حضارتها وباعث نهضتها ، فبالإيمان خرج المسلمون من الجزيرة العربية يحملون راية التوحيد ويشيعون النور والعدل والأمن في أرجاء العالم . وبالإيمان انتصر المسلمون على الحملات الصليبية التسع التي أرادت أن تحصد البلاد والعباد .

وبالإيمان انتصر المسلمون على التتار الذين زحفوا على الشرق الإسلامي كالريح العقيم ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيْمِ ﴾[2] وألقوا المؤلفات الإسلامية في الفرات حتى غلب لون الحبر لون الماء ، وأرادوا أن يدمروا الحضارة الإنسانية كلها لولا أن هيأ الله مسلمين مخلصين من الشام ومصر فردوهم على أعقابهم خاسرين في (عين جالوت) وكان مفتاح النصر كلمة (وإسلاماه) أطلقها القائد (قطز) فألهبت المشاعر واستجاشت العزائم وأيقظت الهمم[3] .

---

(١) سورة إبراهيم (٢٤-٢٧) .

(٢) سورة الذاريات/ ٤٢ .

(٣) الإيمان والحياة د . يوسف قرضاوي ص ١٦ .

والأمة الإسلامية اليوم وهي تواجه خطراً شديداً ، وعدواً شرساً ، لا بد أن تتسلح بسلاح الإيمان وحسن الصلة بالله والإخلاص له في السر والعلن حتى تتمكن من التغلب على العدو الماكر ، وحتى تتمكن من استعادة مجدها القديم ، ولكي تأخذ بأسباب السعادة والتقدم والقوة . .

(نحن أمة مؤمنة) هذه قضية يجب أن تتنبه إليها أقلام المفكرين وتتجه إليها مشاعر الأدباء والكتاب ، وقادة الحرب والمعارك ، وأرباب الأموال وأصحاب المشاريع .

(نحن أمة مؤمنة) يجب أن يكون شعارنا في كل تقدم ، وفي كل ازدهار ونمو وإصلاح وعمران . .

(نحن أمة مؤمنة) يجب أن ترعاها الأم في بيتها والأستاذ في مدرسته والشاب في نشاطه . . كي تتضافر الجهود وتتحد الأهداف في سبيل تثبيت الإيمان في القلوب ، وحماية هذه الحقيقة التي كانت سبباً في كل مجد وعز .

معنى الإيمان :

الإيمان ما استقر في النفس أو ملك على الإنسان قلبه وعقله وأحاسيسه ومشاعره ووجدانه ، فإذا فكر فضمن نطاق الإيمان ، وإذا تكلم فبوحي الإيمان ، وإذا عمل فمن أجل الإيمان . . وللإيمان ركائز يقوم عليها ، هي التصديق القلبي الذي لا يدانيه ريب ولا يقاربه شك ، والإقرار اللساني بالشهادتين وما يترتب عليهما والعمل الظاهري بالجوارح ، وليس من الإيمان في شيء مجرد الإعلان باللسان ، لأن هذا شأن المنافق .

قال الله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] .

وليس من الإيمان في شيء أن يتظاهر الإنسان بأن يؤدي بعض الشعائر الدينية على مرأى من الناس ليقال عنه إنه مؤمن وأنه كذا وكذا ، فهذا هو المرائي .

وليس من الإيمان في شيء أن يعرف الإنسان حقيقة الإيمان معرفة ذهنية

---

(١) سورة البقرة/ ٨-٩ .

فقط ، فكم من أناس عرفوا حقائق الإيمان ولم يؤمنوا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾[1] . وقد أقر أبو طالب بنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ونباهة شأنه ولكنه لم يؤمن به خوف اللوم والمسبة فأعلن :

ودعوتني وزعمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرفت دينك لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وهذا هرقل عظيم الروم يقول : لو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولوكنت عنده لجلست عند قدميه . وجاءت في فتح الباري : عن ابن اسحاق عن بعض أهل العلم أن هرقل قال : ويحك . . والله إني لأعلم أنه نبي مرسل ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته ، فقد وجد من هؤلاء التصديق والتسليم والإقرار إلى حد كبير ولكن العلماء متفقون على أنهم كافرون .

والحق أن الجزء الذي يمتاز به الإيمان ويتضح هو التزام الطاعة مع التبري من كل دين سوى الإسلام . . فإذا التزم الطاعة فقد خرج عن ضلالة الكفر ودخل في هدى الإسلام ، وبهذا تبين وجه كفر هؤلاء الكفرة مع تصديقهم ومعرفتهم وذلك لأن أبا طالب وإن جهر بحقية دين محمد ﷺ لكنه لم يلتزم طاعته ولم يدخل في دينه ولذا قال : لولا الملامة أو حذار مسبه ، فآثر النار على العار ، وهكذا هرقل تمنى لقاءه وبجله وعظمه بظهر الغيب لكنه خشي الروم أشد خشية فلم يلتزم طاعته ، وكذلك حال الكفار الذين أخبر الله سبحانه عنهم بقوله:﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[2] ومع معرفتهم أعرضوا عن كلمة الحق ولم يدينوا بدين الإسلام ، ولذا يقال : إن الإسلام من الإرادات بمعنى أنه لا يكفي فيه الإذعان الفكري الخالص[3] .

وعلى هذا فالإيمان في حقيقته عمل نفسي ووجداني داخلي ، وإدراك وجزم

---

(١) سورة النمل/ ١٤ .
(٢) البقرة/ ١٤٦ .
(٣) لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها د . محمد أمين المصري ص ١٥٣ - ١٥٤ .

ويقين ، وانقياد إرادي . قال الله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بالله ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[1] .

وقال : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[2] .

وقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3] .

ولا بد أن يتبع المعرفة القلبية والتصديق الوجداني والإذعان النفسي الداخلي والإقرار اللساني التزام بالمبادىء الخلقية والسلوكية والجهاد في سبيلها بالمال والنفس قال الله تعالى في وصف المؤمنين :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[4] .

وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾[5] .

وللإيمان أركان هي : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره من الله . وأن أسمى هذه الأركان وأعظمها أثراً الإيمان بالله تبارك وتعالى ورسله ، أما الإيمان بالكتب فهو منبثق عن الإيمان بالله ورسله .

والإيمان بالبعث والقضاء متعلق بهما أيضاً ، فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد الخالق المدبر ، فإنه لا بد أن يترتب على إيمانه هذا الإيمان بالكتب ثم بالقدر ومسؤولية الإنسان والجزاء والحساب .

---

(١) الحجرات/ ١٥ .
(٢) النساء/ ٦٥ .
(٣) النور/ ٥١ .
(٤) الانفال/ ٢و٣ و٤ .
(٥) المؤمنون/ ١ - ٤ .

الإيمان بالله تعالى :

إن حاجة الإنسان إلى الإيمان بوجود الله وبوحدانيته وبقدرته حاجة أساسية سواء من الناحية العقلية أو من الناحية الفطرية أو من الناحية العاطفية ، فالإنسان منذ أن وجد على سطح البسيطة وهو يتساءل : من أين جاء ، وإلى أين يذهب ومتى يذهب ، وكيف وجد ؟ . . . هذه الأسئلة ذاتية تنبعث على لسانه وتتحرك في ذهنه حالما يبدأ يدرك وجوده ويحس الكائنات حوله ، الأمر الذي يجعل الإيمان حياً في النفوس متفاعلا معها .

وإذا قارن الإنسان نفسه مع سائر المخلوقات الكونية أدرك أنه مخلوق صغير بالنسبة للكون ولمظاهر الطبيعة وللسنن المستمرة ، وهذا ما يشعره بضعفه فيلجأ إلى الإيمان بالله يستمد منه القوة في الحياة ، والعون في التعامل مع السنن الكونية .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] .

وإذا خففت العادة من الشعور الفطري في ساعات الرخاء واللهو فإنه يعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء ، أو عند النوائب والكوارث ، أو عند الضيق والمرض .

قال الله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ : لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2] .

وتبدو الفطرة قوية جلية حينما يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومدبره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق بحماسة (الله) (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[3] ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ

---

(١) الروم/ ٣٠ .

(٢) يونس/ ٢٢

(٣) العنكبوت/ ٦١ .

السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ : الله . فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ؟ فَذَلِكُمْ الله رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾[1] .

وسبل المعرفة للإيمان بالله تعالى تختلف من إنسان إلى آخر ، ، فهناك من يستجيب لداعي فطرته فيؤمن ويلتزم ، وهناك من يصل الى الايمان عن طريق السببية وذلك بالايمان أن وراء هذا الكون المنظم المنسجم إلهاً عظيماً خالقاً ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ، فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2] .

ولكن العقل وحده من غير تأييد الرسل وهدايتهم قد يضل سبيل الهداية ، وقد يهبط إلى الدرك الأسفل من السخف والنظر ، فيتخذ من الأحجار والأشجار ومظاهر الطبيعة آلهة ، فيجثو أمامها ، ويخضع لها ، ويستذل لما يبهره من أشكالها وأحوالها ، ولذلك فلا بد من رسالة الرسل لتحمي العقول البشرية من الضلال والانحراف ، وتردها إلى الصراط المستقيم .

قال الله تعالى : ﴿ وإِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأبيه آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ . فلما رَأَ الْقَمَرَبازغاًقَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . . . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3] .

والمعرفة البشرية لا يمكن أن تتوجه إلى ذات الله سبحانه وتعالى ، لأن

---

(١) يونس/ ٣١ - ٣٢ .

(٢) آل عمران/ ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) سورة الأنعام/ ٧٤ - ٧٩ .

العقل البشري المخلوق المحدود بمكان وزمان عاجز عن إدراك الأبدي الأزلي الخالق العظيم ، ولا عجب ، فهناك في عالم المادة أشياء مخلوقة لم يعرف الإنسان كنهها وماهيتها كالمغناطيس والكهرباء ، وككثير من الأفلاك السماوية ، وعدم المعرفة بذاتها وحقائقها لا تستدعي في إنكار وجودها ، بل من الجهل بمكان أن ينكر الإنسان شيئا لعدم إحاطة حواسه به ، إذ أن وجود الشيء لا يتوقف على إدراك حقيقته .

والمعرفة البشرية يمكن أن تتجه إلى آثار الله سبحانه ومخلوقاته التي تحيط بنا أينما **نظرنا وكيفما** نظرنا ، فالأرض والسماء ، والأفلاك والنبات ، والانسان والحيوان **والماء** كل هذه أدلة ناطقة على وجود الله وتفرده بالخلق ووحدانيته بالتصرف .

قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ، لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1] .

ولا شك أن الفطرة السليمة والعقل الواعي يقف مبهوراً أمام كل هذه الآيات ، والقرآن الكريم يلفت النفس الإنسانية الى الدلائل الكونية الثابتة التي تشير إلى قدرة الخالق .

وحدانية الله :

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك ولا مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله سبحانه وتعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[2] ، وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على وحدانية مبدعه ووحدانية مدبره . قال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3]

﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) سورة البقرة/ ١٦٣ .

(٣) الانبياء/ ٢٢

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] .

وهو سبحانه واحد في ربوبيته ، وهو واحد في ألوهيته ، فلا خشية إلا منه ولا اعتماد إلا عليه ولا خضوع إلا لحكمه . . ولا يملك أحد من المخلوقات ضراً ولا نفعاً وحتى الرسل والأنبياء عباد الله ، اصطفاهم سبحانه لحمل رسالته إلى الخلق ولدعوتهم إلى الإيمان . قال الله سبحانه : ﴿مَاكَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2] .

ومن هنا كانت كلمة (لا إله إلا الله) عنوان التوحيد والإخلاص ، ومفتاح العقيدة الإسلامية ، وهي تشتمل على معان عظيمة جليلة ، تخص الله سبحانه بكل قدرة وبكل حكم وبكل سلطان . وهي منهج كامل متفرد عن سائر المناهج والأنظمة ، هي إيذان بمجتمع مستقل متميز بعقيدته ونظامه لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية ، لأنه ينتمي إلى الله وحده ، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه .

وقد أدرك زعماء الجاهلية وجبابرتها ما تنطوي عليه دعوة (لا إله إلا الله) من تقويض لعروشهم ومن القضاء على سلطانهم وطغيانهم ، فأجمعوا كيدهم وحاربوا كل من يؤمن بها وكل من يدعو إليها .

ولكن العلي العظيم سبحانه قد أتم نوره وأعز جنده وارتفعت كلمة الحق فوق كل بلد ، وعشقها كل قلب صاف ، وكل عقل نير ، ولان لها كل إنسان واع ناضج متفتح المشاعر والأحاسيس . .

الإيمان بصفات الله تعالى :

ويلزم من الإيمان بوجود الله وبوحدانيته الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته العلية ، وأنه منزه عن كل نقص ، قال سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3] ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

---

(١) المؤمنون/ ٩١ .

(٢) آل عمران/ ٧٩ ـ ٨٠

(٣) سورة الشورى/ ١١

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١) .

وهو العزيز الفعال لما يريد ، الذي لا يغلبه شيء ولا يقهر ارادته شيء ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) .

وهو القدير الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو الذي يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ، ويحيي العظام وهي رميم .

وهو الحكيم الذي لا يخلق شيئاً عبثاً . ولا يترك شيئاً سدى ، ولا يفعل فعلاً أو يشرع شرعاً إلا لحكم ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها . وهو الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ، ووسعت رحمته كل شيء ، كما وسع علمه كل شيء ، وقد حكى القرآن الكريم دعاء الملائكة :﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾(٣) .

وقال سبحانه : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٤) وقال جل ذكره : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٥) ﴿. . . خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلاَ ، الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(٦) .

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ

---

(١) الأنعام/ ٥٩

(٢) آل عمران/ ٢٦ .

(٣) غافر/ ٧ .

(٤) الأعراف ١٥٦ .

(٥) الزمر/ ٥٣ .

(٦) طه / ٤ - ٨

الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الْحكِيمُ﴾[1] .

وهو سبحانه مع عباده جميعاً بعلمه وإحاطته (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾[2] مع المؤمنين خاصة بتأييده ومعونته ﴿ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[3]

والكون كله صامته وناطقه ، أحياؤه وجماده ، ناطق بعظمة الله ومنقاد لأمره ، ومسبح بحمده ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوات السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[4] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوات وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾[5] .

وأود أن أشير هنا إلى ما ذكره الأستاذ أبو الأعلى المودودي في أن الإنسان يكون على أربع درجات باعتبار الإيمان والإسلام :

١ ـ الذين يؤمنون إيماناً يجعلهم مطيعين له . متبعين لأحكامه اتباعاً كاملاً ، يحذرون ما قد نهى عنه ، كما يحذر الإنسان الإمساك بجمرة متقدة من النار في يده . ويسارعون إلى العمل بما فيه رضاه ، كما يسرع الإنسان إلى كسب الأموال فهؤلاء هم المؤمنون حقا .

٢ ـ الذين يؤمنون بالله ، ولكن لا يجعلهم إيمانهم مطيعين له ، متبعين لأحكامه اتباعاً كاملاً . فهؤلاء وإن كان إيمانهم لم يبلغ درجة الكمال ولكنهم مسلمون على كل حال . يعاقبون بقدر معصيتهم ، كأنهم بمنزلة المجرمين وليسوا بمنزلة البغاة المتمردين . لأنهم يعترفون للملك بملكه ويخضعون لقانونه .

٣ ـ الذين لا يؤمنون بالله ولكنك تراهم ظاهراً يأتون بأعمال تشابه أعمال المسلمين ، فهم البغاة في حقيقة الأمر . وأما أعمالهم التي تراها صالحة في الظاهر فليست بطاعة لله ولا اتباع لقانونه . فلا عبرة بها ومثلهم كمثل رجل لا

---

(١) سورة الحشر الآيات : ٢٢، ٢٣، ٢٤ .
(٢) الحديد / ٤ .
(٣) النحل آخر آية .
(٤) الإسراء / ٤٤ .
(٥) الحج / ١٨ .

يعترف للملك بملكه ، ولا يخضع لقانونه ، فإذا صدرت عنه بعض أعمال لا تخالف قانون الملك لا يحكم عليه بكونه وفياً للملك ومطيعاً لقانونه . بل هو عاص لأمره خارج على قانونه .

٤ ـ الذين لا يؤمنون بالله ويأتون أيضا بأعمال سيئة مخالفة لأحكامه وقانونه فهم شر الناس ، بغاة مفسدون .

فالظاهر من هذه القسمة أن الايمان هو الذي ينحصر فيه نجاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة ، ولا يتولد الإسلام ، إلا من بذر الإيمان فحيث لا يكون الايمان يكون الكفر . والكفر ضد الإسلام ، أي الخروج على أمر الله تعالى باختلاف درجاته ﴾[1] .

الايمان بالنبوة :

إن الإيمان بالله تعالى وبتدبيره للعالم وتكريمه للإنسان يستلزم الإيمان بالنبوة ، ذلك لأن الله سبحانه الذي خلق الإنسان وسخر له ما في الكون جميعاً لم يتركه يتخبط على غير هدى ، بل من تمام الحكمة والفضل أن يهديه سبيل الحق والخير ، ويهيىء له الزاد الروحي كما هيأ له الزاد المادي ، وأن ينزل الوحي من السماء ليحيي به القلوب كما أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها[2] .

والإيمان بالنبوة أو الصلة بين الله تعالى والمجتمع الإنساني عن طريق الأنبياء من خصائص الدين ومزاياه .

قال الله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

---

(١) مبادىء الإسلام للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) الإيمان والحياة . د . يوسف القرضاوي ص ٣٢ .

(٣) سورة البقرة/ ٢١٣ .

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1] وقال جل من قائل : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[2] ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[3] .

والمسلمون مطالبون أن يؤمنوا بجميع الأنبياء والرسل ، وأن دعوتهم واحدة وإن اختلفت مناهجهم وشرائعهم باختلاف الأزمان والبيئات . .

قال الله تعالى : ﴿ . . . وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[4] .

وقال جل ذكره : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[5] .

وقال : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[6] .

ويقول الرسول ﷺ : (مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين)[7] .

والأنبياء في الاعتبار الايماني وفي الميزان الإلهي ليسوا آلهة ولا أبناء آلهة ولا أنصاف آلهة ، وإنما هم بشر مثلنا ، يأكلون كما نأكل وينامون كما ننام ويمشون في الأسواق ، إلا أنهم معصومون عن الكبائر وسفاسف الأمور بعصمة الله تعالى واقتضائه، لما يحملون من رسالة وبما يؤدون من دعوة .

---

(١) الحديد/ ٢٥ .
(٢) النساء/ ١٦٥ .
(٣) الإسراء/ ١٥ .
(٤) البقرة/ ٢٨٥ .
(٥) البقرة/ ١٣٦ .
(٦) الشورى/ ١٣ .
(٧) رواه مسلم

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[1] .

الوحي :

تتم الصلة بين الله تبارك وتعالى وبين الأنبياء بالوحي ، ولكن ماذا تعني كلمة الوحي ؟

الوحي في اللغة : إعلام في خفاء ، ولذلك سمي الإلهام وحياً[2] .

وقال الراغب الأصفهاني « أصل الوحي الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل أمر وحي ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب أو بإشارة بعض الجوارح وبالكتابة »[3] .

الوحي في الشرع : قال ابن الأنباري : « إنما سمي وحياً لأن الملك أسره على الخلق وخص به النبي الذي بعثه الله إليه »[4] .

وقال الراغب : يقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى الأنبياء وحي . .

وعلى هذا : فالوحي يعني إلقاء الله تبارك وتعالى الكلام أو المعنى في نفس الرسول بخفاء وسرعة ، وظاهرة الوحي مرافقة للنبوة وهي خارقة للعادة . .

كلمة الوحي في القرآن الكريم :

وردت كلمة (الوحي) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي والشرعي فمن الأول قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾[5] . . وقوله سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾[6] .

---

(١) الكهف/ ١١٠ .
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (وحي)
(٣) المفردات في غريب القرآن
(٤) لسان العرب .
(٥) سورة النحل الآية/ ٦٨ .
(٦) القصص/ ٧ .

﴿ وإذْ أَوْحَيْتُ إلى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسولي قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

﴿ إذْ يُوحي رَبُّكَ إلى الْمَلائِكَةِ أَني مَعكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنُوا سأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[2] .

كما وردت كلمة الوحي في القرآن بمعناها الاصطلاحي ، من ذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ إنَّا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إلى نُوحٍ وَالنَّبِيينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إلى إبْرَاهيمَ وَإسماعيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً . رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئلاَّ يكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حكِيماً ﴾[3] .

ونلحظ على ضوء مامر أن معنى الوحي في الشرع أخص استعمالاً منه في اللغة .

الوحي ظاهرة مميزة للأنبياء :

إن الإيمان بالنبوة يستدعي الإيمان بالوحي ، لأنه ظاهرة مميزة للأنبياء جميعاً ، وقد أوحى الله سبحانه إلى سائر الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلوات الله عليهم جميعا . ولذلك فقد أدرك ورقة بن نوفل بما أوتي من معرفة مسبقة بأوصاف الوحي أن ما ألم بمحمدﷺ في غار حراء إنما كان وحياً ، فجزم القول للسيدة خديجة رضي الله عنها (هذا الناموس الذي نزل على موسى) وخص موسى بالذكر مع أن الوحي نزل عليه وعلى غيره من الرسل كعيسى عليه السلام مثلاً وذلك لإجماع أهل الديانتين اليهودية والنصرانية على الإيمان بنزوله على موسى . ولم يقل ورقة : إنه الذي نزل على عيسى ، لأن اليهود ينكرون نبوة عيسى[4] .

---

(١) المائدة/ ١١١ .

(٢) الأنفال/ ١٢ .

(٣) النساء/ ١٦٣ ـ ١٦٥ .

(٤) فتح الباري/ ١/ ٢٠ .

ورأي اليهود هذا معروف في الجزيرة العربية لاستيطان بعضهم في أجزاء منها فجاءت النسبة الى موسى عليه السلام ، أبلغ في إعلان التيقن ، والتأكيد على أنه ملك الوحي ، وأقطع حكماً بنبوة محمد ﷺ ، وأنفى للشك ، وأبعد عن الاحتمال والتأويل الذي قد يجر إليه قذف الموضوع في لجة الخلاف .

الإيمان بالوحي :

إن الإيمان بالوحي يتوقف إلى حد كبير على الإيمان بالغيب ، فلا بد من إطلاق سراح العقل من قيد المادة والحواس الخمس التي تقيد التفكير البشري بعالم محسوس محدود ، وليس في هذا عجب ولا غرابة ، فإن العلم نفسه ـ وبعد أن قطع شوطاً كبيراً من المعرفة يقف عاجزاً عن إيجاد تفسيرات لبعض المظاهر الطبيعية من ذلك أشعة (إكس) مثلاً ، فهي أشعة موجودة ولكنها لا تدرك بالحواس وقد استطاع الإنسان أن يستخدم أمواج (الكهراطيسية) لتقريب البعيد فيتمكن من التقاط الصوت ومن الاستماع إليه بطريق جهاز صغير عن بعد آلاف الأميال ومع ذلك فلم يدرك حقيقة (الكهراطيس) . . . فهذا الإنسان الذي عرف تلك الحقائق وانتفع بها ينبغي أن يكون أكثر تفهماً وتقبلاً لحادثة الوحي وأقوى إيماناً برسل اللهوبقدرةالله سبحانه الذي بيده ملكوت السماء والأرض والذي خلق الإنسان ومنحه العقل والحواس والعلم وقوة الملاحظة ودقة الادراك . . ومن أنكر وجود (الوحي) لأنه لا يرى فقد أهدر كرامته وأهدر إنسانيته ، لأنه لم يقدر البون الشاسع بين ضعف الإنسان وجهله وعقله المخلوق وقدرته المحدودة ، وبين علم الله الواسع المحيط ، وأنه سبحانه خالق مدبر متصرف متفرد بالإحياء والإماتة .

« وإن حواس الكائنات الحية تختلف في إدراكها للأشياء ، وهي تحكم بما يسمى بقانون العتبات ، أي أن لكل حاسة عتبة دنيا لا تحس ما دونها من المخلوقات والموجودات ، وعتبة عليا لا تحس بما فوقها من هذه الموجودات ، فهي لا تحس إلا بما بين العتبتين ، وهاتان العتبتان مختلفتان في الإنسان عنهما في سائر الكائنات الأخرى ، وهكذا قد تلتقط اذن الكلب أصواتاً لا تلتقطها اذن الإنسان وقد ترى عين الحصان أشياء لا تراها عين الإنسان وهكذا . .

قلنا هذا لتقريب ظاهرة الوحي إلى الأذهان ، ولنبين أنها غير مستحيلة عقلاً ، وإلا فهي إحدى الظواهر الخارقة التي يتصل الإيمان بها بالإيمان بالله تعالى

خالق الأكوان والعجائب فيها ، والذي لا يعجزه أن يخرق السنن والنواميس التي خلق الوجود عليها »[1] .

قال الله سبحانه : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَاتُبْصِرُونَ . ومَا لاتُبْصِرُونَ . إنَّه لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيْلاً مَا تُؤْمِنُونَ . وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيْلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] .

فالآيات الكريمة تشير إلى وجود أشياء لا تراها العين البشرية ومن جملتها الوحي الذي يدركه الرسول وحده دون سائر الآدميين .

أنواع الوحي :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إنَّهُ عَلِيٌّ حكِيمٌ﴾[3] .

ومن خلال ما تسلطه الآية الكريمة من أضواء على الوحي يمكن أن نصنف الوحي إلى أنواع متعددة هي :

النوع الأول : أن يلقي الله المعنى في قلب النبي ﷺ مباشرة ويكون ذلك في اليقظة أو المنام . وهذا ما يستخلص من قوله تعالى ﴿ إلاَّ وَحْياً﴾ وتحت هذا النوع يندرج قسمان :

القسم الأول : إلقاء الله المعنى إلى قلب النبي يقظة ، ويتم ذلك من غير واسطة الملك مع خلق علم ضروري عند النبي أن هذا المعنى قد قذفه الله قطعاً ، فهو نور ينبلج في القلب فلا يندفع ولا يحتمل الشك ولا التأويل . ويشير إلى هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله﴾[4] .

وقد فسر علماء التفسير قوله تعالى ﴿ بِمَا أَرَاكَ الله﴾ بما أعلمك :

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية د . عبد الكريم عثمان ص ٥٧ .
(٢) سورة الحاقة ٣٨ - ٤٣ .
(٣) سورة الشورى/ ٥١ .
(٤) سورة النساء/ ١٠٥ .

(١) قال الإمام الفخر الرازي : (بما أعلمك الله ، وسمى ذلك العلم بالرؤية لأن العلم اليقيني المبرأ من جهات الريب يكون جارياً مجرى الرؤية في القوة والظهور. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لا يقولن أحد قضيت بما أراني الله تعالى ، فإن الله تعالى لم يجعل ذلك إلا لنبيه . وأما الواحد منا فرأيه يكون ظناً ولا يكون علماً)[١] .

(٢) قال الآلوسي رحمه الله : (بما أراك الله : أي بما عرفك وأوحى به إليك)[٢] .

(٣) قال صاحب المنار : (بما أراك الله . . أعلمك علماً يقيناً كالرؤية في القوة والظهور ، وما ذلك إلا الوحي الذي يفهم منه مراد الله فهماً قطعياً)[٣] فمعنى الآية ـ بناء على هذا ـ لتحكم بين الناس بما أعلمك أو عرفك الله تعالى بوحي منه . .

القسم الثاني : الرؤيا الصادقة . وفي قصص الأنبياء كثير من حوادث الرؤيا الصادقة منها قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾[٤] .

النوع الثاني : يستخلص من قول الله تعالى : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وقد حصل لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ إذ كلم الله موسى تكليماً من غير واسطة ، ولم يره موسى . قال تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾[٥] .

النوع الثالث : أن يرسل الله ملك الوحي جبريل عليه السلام إلى النبيﷺ فيوحي إليه ما أمره أن يوحيه ، ويحصل له علم ضروري بأنه ملك الوحي يبلغه عن الله تعالى وهذا النوع يستخلص من قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وقد حصل هذا لسيدنا محمدﷺ ولجميع الرسل قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى

---

(١) التفسير الكبير ٤/ ص ١١٥ .
(٢) روح المعاني ٢/ ص ٣٠ .
(٣) المنار ٣/ ٦٠ .
(٤) الصافات/ ١٠٢ .
(٥) النساء/ ١٦٤ .

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] .

ومن الوحي بغير واسطة ما ألقاه الله تبارك وتعالى على النبيﷺ ليلة الإسراء والمعراج من أمره بالصلاة . .

نزول القرآن الكريم بواسطة جبريل :

أنزل الله القرآن الكريم بواسطة الملك جبريل على محمدﷺ في اليقظة ، قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[2] .

وقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ ﴾[3] .

وأطلق عليه اسم روح القدس ، والروح الأمين لأنه كان يتنزل بما يحيي موات القلوب فهو بمثابة الروح ، ويرى الرازي : أن إضافة الروح إلى القدس في الآية لأنه مجبول على الطهارة والنزاهة من العيوب ، وروحانيته أتم وأكمل من سائر الملائكة فخص بهذه الإضافة دونهم .

ويرى الراغب الأصفهاني : أنه خص بذلك لاختصاصه بالنزول بالقدس من الله تعالى . أي بالنزول بما يطهر به نفوسنا من القرآن والحكم والفيض الإلهي . وهذا أرجح لتعلقه بأمر ظاهر في مهمته[4] .

أساليب اتصال جبريل عليه السلام بالرسولﷺ :

لقد اتصل جبريل بالرسول عليه الصلاة والسلام بأساليب شتى منها :

(١) ظهر جبريل للرسولﷺ بصورته الملكية الحقيقية مرتين :

الأولى : يوم أن جاءه الوحي لأول مرة في غار حراء . وقال له (أقرأ)

والثانية : حينما عرج به ليلة الإسراء والمعراج ، إلى السماوات السبع ،

---

(١) سورة البقرة/ ٩٦ .

(٢) سورة الشعراء /١٩٣ .

(٣) سورة النحل/ ١٠٢ .

(٤) الرسالة والرسول للدكتور نور الدين العتر ص ٦٧ .

عند جنة المأوى ، قال تعالى :﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾[1] .

(٢) كان الوحي يأتيه من الملك صوتاً مدوياً قوياً يشبه صلصلة الجرس يقرع سمعه قرعاً ، ويحيط به الصوت من كل مكان . قال عليه الصلاة والسلام (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال) . .

(٣) أن يأتيه الملك بصورة رجل عادي . وفي هذه الحالة كان الصحابة الكرام يرون شخصاً أمامهم لا يعرفونه وليس عليه أثر من سفر فيسأل الرسول ﷺ ويصدقه ، فيعجبون لسائل يسأل ثم يصدق المجيب .

(٤) وقد يلقي الملك في فؤاد الرسول ﷺ وعقله معنى خاصاً من غير أن يرى أو يسمع .

قال عليه الصلاة والسلام : (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته . .) .

خصائص الوحي :

إن للوحي خصائص يتميز بها وهي توضح جلياً أن الوحي من عند الله وليس للنبي المصطفى إرادة في حصوله وأهم هذه الخصائص هي :

(١) أنه حدثٌ مفاجيء ، يطرأ على حياة النبي من غير تشوف إليه أو تطلع له وقد كان رسول الله ﷺ في غار حراء يتحنث حينما فاجأه الوحي وغطه ثلاثاً ، حتى

---

(١) النجم ١ - ١٧ .

كادت أضلعه تختلط ثم تركه فرجع رسول الله ﷺ خائفاً وجلاً يحدث السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ بما أصابه ، فذهبت به إلى ورقة بن نوفل لتستطلع الخبر وتستفسر عما حصل له ﷺ .

(٢) أنه حدث إلزامي : وتتجلى إلزامية الوحي بمظهرين :

المظهر الأول تغير الحالة العادية للرسول ﷺ وذلك باحمرار الوجه وانصباب العرق من جبينه وثقل جسمه حتى أن الدابة تبرك على الأرض .

والمظهر الثاني : تغير الأحوال النفسية من حالة الهدوء إلى الخوف الشديد وبخاصة أثناء التلقي الأول .

(٣) إن الوحي مستقل عن ذات الرسول ﷺ وشخصه :

ويدل على هذا أن الرسول ﷺ لا يستطيع استحضار الوحي وقد غاب عنه فترة طويلة بعد أن جاءه الملك في غار حراء لأول مرة .

(٤) حصول الوحي وفق الاصطفاء الإلهي :

إن الوحي أمر اصطفائي إلهي لا دخل لجهد الإنسان فيه ولا لنسبه ولا لسعيه ولا لترقيه الروحي أو سموه الخلقي . . وإن الله سبحانه اختص برحمته من يشاء من الأنبياء والرسل . قال الله تعالى : ﴿ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[1] .

ومما يتصل بمسألة الإيمان بالنبوة الإيمان بالمعجزة . .

المعجزة :

هي حادثة خارقة للعادة والقوانين التي يلاحظها الناس وتحصل المعجزة تأييداً لنبوة النبي ، وتنقسم المعجزة إلى قسمين : معجزة مادية ومعجزة معنوية . .

وليست المعجزة بأعجب من خلق السماوات والأرض ومن فيهن وما بينهنّ إذ أن المعجزة حادث مفرد ، والذي قدر أن يخلق كل ما في الكون قادر على إيجاد حادثة مغايرة للمألوف السمعي والبصري أو المعنوي .

---

(١) سورة البقرة/ ١٠٥ .

ومن المعجزات المادية التي تحدث عنها القرآن الكريم : ناقة صالح ، قال الله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

ومنها تحول عصا موسى وهي جماد إلى حية تسرع المشي في الأرض . . قال تعالى : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2] .

ومنها معجزات عيسى عليه السلام : وقد حدثنا القرآن عنها بقوله تعالى : ﴿ . . أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله ، وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ الله ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

وأما المعجزات المعنوية فهي أقوى أثراً ، وأدوم بقاء من المعجزات الحسية وأهمها القرآن الكريم الذي نزل على خاتم المرسلين بلسان عربي مبين .

معجزات رسولنا محمد ﷺ :

لقد أجريت على يدي رسول الله ﷺ معجزات مادية كثيرة ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم وهي :

(١) الإسراء من مكة الى القدس في ليلة واحدة ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾[4] .

(٢) المعراج إلى السماوات العليا في ليلة واحدة أيضا ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ

---

(١) الشعراء/ ١٥٣ - ١٥٦ .
(٢) سورة الشعراء/ ٢٩ - ٣٣
(٣) سورة آل عمران/ ٤٩ .
(٤) سورة الإسراء/ ١ .

الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1] .

(٣) تنبؤه بانشقاق يظهر على سطح القمر ، وهي ظاهرة سماوية وقعت فعلاً بعد تنبئه بها مباشرة وشاهدها الناس الذين كان يخاطبهم : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[2] .

(٤) معجزة النصر على جيوش أعدائه ، وكان النصر مؤزراً بتأييد الملائكة وقتالهم في صفوف المسلمين على الرغم من قلة عددهم ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[3] ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[4] ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾[5] .

(٥) تنبؤاته وهو في حال الضعف المادي الشديد بالانتصار على كفار مكة وانقراض دولتي فارس والروم . . وكثير غيرها من المعجزات التي ورد ذكرها في السنة النبوية .

وكان أهم تلك المعجزات وأعظمها أثراً المعجزة العقلية المعنوية التي أنزلها الله تبارك وتعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين ألا وهي الكتاب الخالد . . . والقرآن الكريم في واقع الأمر يتصل اتصالاً وثيقاً بماهية الرسالة الإسلامية ويعتبر ركناً أساسياً من أركانها ، وجانباً حيوياً من جوانبها ، وهو معجزة باقية على الدوام والاستمرار ، والقرآن الكريم يخاطب العقل البشري ويعتمد على القناعة المنطقية والذوق النفسي والفطرة السليمة والضمير المتيقظ .

الإعجاز في القرآن الكريم ووجوهه :

الإعجاز في اللغة العربية : نسبة العجز إلى الغير وإثباته له ، وقد أعجز القرآن الناس بلغاءهم وفصحاءهم ، وأدباءهم وحكماءهم ، وعلماءهم

---

(١) سورة النجم/ ١٣ ـ ١٨ .
(٢) القمر/ ١ .
(٣) الانفال/ ١٧ .
(٤) سورة الأنفال/ ٩ .
(٥) الأنفال/ ١١ .

ومفكريهم عن الإتيان بآية تماثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وسيبقى القرآن الكريم شامخاً لا يدانيه فكر ولا قول مهما سما وتألق .

قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[1] .

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[2] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3] .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[4] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[5] .

والقرآن الكريم تحدى بإعجازه الناس ليكون حجة وإثباتاً لنبوة محمدﷺ ، وليبطل دعوى من ادعى بأنه من وضع بشر ، فلسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا عربي مبين ، فهو كتاب الله المنزل هدى ورحمة للعالمين .

وهو لم ينزل جملة واحدة ، بل نزل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة لحكم جليلة أرادها رب العباد ، ومن هذه الحكم الإعجاز في زمن التنزيل فهناك متسع زمني لمن أراد أن يعارض القرآن فليعارضه لو كان بمقدوره ، وليستعن بمن شاء من الكهان وأهل الكتاب .

ولما تبين للكافرين عجزهم عن الإتيان بمثله مع شدة حرصهم وتوفر

---

(١) سورة القصص الآية / ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة الإسراء الآية/ ٨٨ .

(٣) سورة هود الآية/ ١٣ .

(٤) سورة البقرة الآية/ ٢٣ - ٢٤ .

(٥) سورة الطور الآية/ ٣٣ - ٣٤ .

دواعيهم ، وانتفاء ما يمنعهم لجؤوا إلى محاربة الرسولﷺ والمسلمين المؤمنين بدل المعارضة ، وائتمروا على قتلهﷺ بدل الائتمار على الإتيان بمثل القرآن اعترافاً منهم بعجزهم عن المعارضة والتسليم بأن القرآن فوق مستوى البشر .[1] .

وجوه إعجاز القرآن الكريم :

ولكن لماذاعجزالناس عن الإتيان بمثل آيةمنه، وما هي وجوه الإعجاز ؟ اتفقت كلمة العلماء على أن القرآن لم يعجز الناس عن أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة ، وإنما أعجزهم من نواح متعددة : لفظية ومعنوية وروحية تساندت وتجمعت فأعجزت الناس أن يعارضوه ، واتفقت كلمتهم أيضاً على أن ـ العقول لم تصل حتى الآن إلى إدراك نواحي الإعجاز كلها وحصرها في وجوه معدودات ، وأنه كلما زاد التدبر في آيات القرآن ، وكشف البحث العلمي عن أسرار الكون وسننه ، وأظهر كر السنين عجائب الكائنات الحية وغير الحية ، تجلت جوانب جديدة من جوانب إعجازه وقام البرهان على أنه من عند الله[2] .

وقد أُلفت في (إعجاز القرآن) مؤلفات قيمة أشهرها :

١ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي[3] .

٢ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي

٣ ـ إعجاز القرآن للباقلاني[4] .

٤ ـ رسائل في إعجاز القرآن مكونة من ثلاث مجموعات :

الأولى : النكت في إعجاز القرآن للرماني[5] .

الثانية : بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان عمر بن محمد الخطابي[6]

---

(١) انظر

(٢) انظر علم أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٢٧ .

(٣) المتوفي سنة ٩١١ هـ .

(٤) المتوفي سنة ٤٠٣ هـ .

(٥) المتوفي سنة ٣٨٦ هـ .

(٦) المتوفي سنة ٣٨٨ هـ .

الثالثة : الرسالة الثانية في الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني[1]

٥ ـ أحكام القرآن لابن العربي

وأود أن أشير هنا إلى أهم جوانب الإعجاز في كتاب الله العظيم .

(١) العلوم المستنبطة من القرآن الكريم :

جمع القرآن الكريم من العلوم والمعارف ما لم يأت به كتاب من الكتب ، وجاء بأصول العقيدة والعبادة ، وأساسيات النظم المتكاملة للحياة الاجتماعية الداخلية ، والأنظمة السياسية .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ[2] ﴾ وقوله جل من قائل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[3] .

وقد استنبط الصحابة والتابعون وتابعوهم من القرآن الكريم مجموعة من العلوم والفنون ، فقد اعتنى النحاة بالمعرب والمبني وغير ذلك مما يتعلق بعلم النحو ، وكان القرآن الكريم أساساً يعتمد عليه في وضع قواعد اللغة العربية .

كما اعتنى المفسرون بدراسة ألفاظه وبيان معانيها ودراستها دراسة دقيقة عميقة .

وعني علماء العقيدة بما ورد في القرآن الكريم من أدلة عقلية ، وشواهد أصلية ونظرية ، وبراهين منطقية مثل قول الله تبارك وتعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[4] .

ونظرت طائفة من العلماء في معاني الخطاب ، وفي جمال اللفظ وروعة بيانه وعظيم فصاحته ودقة عبارته وجلال أسلوبه ، فأسسوا علم البلاغة والبيان .

واتجهت طائفة إلى دراسة الأوامر والنواهي ، فنشأ من ذلك علم الفقه .

---

(١) المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

(٢) سورة الأنعام/ ٣٨ .

(٣) سورة النحل الآية/ ٨٩ .

(٤) سورة الأنبياء/ ٢٢ .

واتجه علماء الاقتصاد لاستنباط الأحكام الأساسية لهذا العلم ، فبينوا موارد بيت المال ومصارف الزكاة ، ونظام الفيء والغنيمة ، وعلى هذا الضوء انتظم علم الاقتصاد الإسلامي .

ونظر علماء الحضارة الإسلامية إلى القرآن الكريم فاقتبسوا منه أسس الدولة الإسلامية ، وهيكل الحضارة من سياسة ونظم إدارية ودستورية واجتماعية وعسكرية وأخلاقية ، وعلاقات دولية .

واتجه علماء السيرة إلى القرآن الكريم فاستنبطوا منه أسس السيرة ودعائم التاريخ .

وتدارس قوم ما في القرآن الكريم من حكم وأمثال ومواعظ فنشأ من ذلك علم الخطابة والدعوة .

وذهبت طائفة إلى كتابة آياته وتحسين الخط فنشأ من ذلك علم الخط .

وتلقي القرآن بالتواتر عن رسول الله ﷺ فوضع لذلك علم التجويد أو فن الترتيل ، ووجدت قواعد تضبط نطقه ولفظه .

وهكذا فقد نشأت علوم كثيرة مستقاة من القرآن الكريم فضلاً عن علم الفرائض والفلك ، والمواقيت والحساب[1] وغيرها كثير .

(٢) كونه محفوظاً على مر الزمان

من الأدلة القوية والبراهين الثابتة على إعجاز القرآن الكريم أن الله تعالى حفظه من التغيير والتبديل والتحريف مع طول الزمن وكثرة الأعداء قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2] .

(٣) الأسلوب والفصاحة والفواصل

إن لألفاظ القرآن الكريم روعة أيما روعة ، وإن لاتصال جمله والتئام كلمه قوة وهيبة وبلاغة خارقة ، وأسلوباً جليلاً عظيماً .

---

(١) انظر معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي رحمه الله

(٢) سورة الحجر/ ٩ .

إنه لم يشبه أساليب العرب السابقة ، ولم يشبهه أسلوب لاحق ، وقد أعجز العرب وهم أئمة البلاغة والبيان ، وأمراء الفصاحة والجزالة ، وسادة الشعر والنثر وقد حاولوا أن يعارضوه فوقفوا مغلوبين على أمرهم مقهورين ، مقرين معترفين بجلال القرآن وعظمته وأنهم عاجزون عن الإتيان بآية من آياته .

ومن أهم هذه البلاغة :

أ ـ استعمال القرآن الكريم للمجاز في آيات كثيرة ، نضرب أمثلة على ذلك :

قوله تعالى : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾[1] .

فالآية نسبت الفعل إلى الظرف وهو اليوم ، وجعلته فاعلاً متحركاً ينبض بالحياة والحيوية ، ليزيد تأثير اللفظ في القلب ، ويمسك بجماع اللب والفؤاد .

وقوله تعالى :﴿ عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[2] والمراد أن العيشة مرضية وقوله سبحانه ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾[3] أي عزم عليه

وقوله جل شأنه:﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾[4] أي فما ربحوا فيها .

ب ـ التشبيه : إن التشبيه من أجود أنواع البلاغة ومن أشرفها وأعلاها ، والغاية منه تأنيس النفس وتقريب البعيد وإظهار الخفي . ومن هذه الصور الرائعة قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[5] .

وقوله:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾[6] .

جـ ـ الاستعارة : وهي مزج المجاز بالتشبيه ، فهي مجاز علاقته المشابهة وهي

---

(١) المزمل/ ١٧ .
(٢) الحاقة/ ٢١ .
(٣) سورة محمد/ ٢١ .
(٤) البقرة/ ١٦ .
(٥) البقرة/ ٧٤ .
(٦) إبراهيم/ ١٨ .

عند بعضهم : أن تستعار الكلمة من شيء معروف بها إلى شيء لم يعرف بها ، وحكمة الاستعارة إظهار الخفي ، وإيضاح الظاهر الذي ليس بجلي ، أو حصول المبالغة .

ومن أمثلة إظهار الخفي قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ ﴾[1] أي في أصل الكتاب .

ومن أمثلة إيضاح ما ليس بجلي : قوله تعالى ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾[2] والمراد : أن يطيع الولد والديه بإظهار الخضوع والمذلة رحمة بهما ، فاستعير للذل جانبه ثم استعير للجانب جناح .

د ـ الكناية والتعريض : مثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[4] .

هـ ـ الأمثال في القرآن الكريم : والأمثال قسمان : قسم ظاهر مصرح به ، وقسم آخر لا ذكر فيه للمثل .

ومن الأول قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[5] .

وقوله ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾[6]

﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ ﴾[7]

﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[8] .

---

(١) الزخرف/ ٤ .
(٢) الإسراء/ ٢٤ .
(٣) البقرة/ ١٩٧ .
(٤) الزخرف/ ١٨ .
(٥) الرعد/ ١٧ .
(٦) الأعراف/ ٥٧ .
(٧) يوسف/ / ٥١ .
(٨) يوسف/ ٤١ .

﴿ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[1] .

﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾[2] .

﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[3] .

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾[4] .

ومن الأمثال الكامنة قوله تعالى :

﴿ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾[5] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾[6] .

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾[7] .

وغير ذلك من أوجه البلاغة : كالحصر والإطناب ، والإيجاز والبسط ، والإيغال والتذييل ، والإرداف والتمثيل ، مع جمال وإبداع وكمال[8] .

٤ ـ افتتاح السور بالحروف المقطعة مثل ﴿ ألم . ألر . كهيعص . طس . ن ﴾ فهي لدى بعض المفسرين نوع من أنواع تحدي الكافرين ، وتوجيه الخطاب إليهم للدلالة على أن القرآن الكريم مؤلف من هذه الحروف العربية ، ومع ذلك فقد أعجز البلغاء والفصحاء ، وأئمة اللغة وأرباب البيان ، عن أن يضاهوه ولو بآية واحدة .

٥ ـ مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض فإننا لا نجد في الآيات القرآنية على كثرتها ، وطول الفترة التي استمر نزول القرآن فيها ، وتباعد أولها عن

---

(١) هود/ ٨١ .

(٢) فاطر/ ٤٣ .

(٣) النساء/ ١٩ .

(٤) البقرة/ ٢١٦ .

(٥) البقرة/ ٦٨ .

(٦) الفرقان/ ٦٧ .

(٧) الإسراء/ ٢٩ .

(٨) انظر البرهان للزركشي ، وإعجاز القرآن للسيوطي ، وأحكام القرآن لابن العربي ، ومعترك الأقران للسيوطي .

آخرها ، ما يناقض بعضها بعضاً أو يعارض أولها آخرها .

٦ ـ انقسام الآيات إلى محكم ومتشابه ولعل من أشهر أقوال المفسرين :

إن المرادبالحكم ماعرف المقصودمنه إمابظهوره وإمـابتفسيره وتأويله . والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، ويأجوج ومـأوج . . ولعـل الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم ترجع إلى سببين : أولهما حث العلماء على النظر فيه للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه .

الثاني أن يعرف الناس أقدارهم من المعرفة والعلم . فان الإنسان مهما بلغ من منزلة علمية رفيعة ، ودرجـة عالية من المعرفـة فإن علمـه لا يحيط بكل شيء ، لذلك لا بد من الإذعان لله سبحانه الذي وسع علمـه كل شيء قال سبحانه ﴿ هُوَ الذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَـابِ وأخرُ مُتَشَابِهاتٌ ، فأمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فيتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ الله والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا به كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكر إلاَّ أُولُوا الألْبَابِ ﴾[1] .

٧ ـ هيبة القرآن الكريم وروعته

يحظى القرآن الكريم بروعة بليغة ، وهيبة عظيمة تستشعرها النفوس عند سماع الآيات الكريمة أوعند تلاوتها ، وهذا الإحساس ليس خاصاً بالمؤمنين بل هو عام يدركه كل من يتمتع بعقل واسع ، وفكر نير ، وحس مرهف .

وذلك لما يتضمن كتاب الله من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، وتذكير بالنشأة والمصير ، وذكر للمـوت والبعـث ، والنشـور والحسـاب ، والجنـة والنار .

وقد صنع القرآن الكريم في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثـر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى ، لقـد صنـع في هذه النفـوس فوارق أضخم وأبعد آثاراً في أقدار الحياة وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها ، طبيعته في دعوته وفي تعبيره ، وفي موضوعه وأدائه . . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على

---

(١) آل عمران/ ٧ .

قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام واستعداد لادراك ما يوجه إليه ويوحى به .

٨ ـ تأثيره في النفوس :

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم تأثيره في النفوس ، المؤمنة منها والكافرة ، فكل من يصغي لتلاوة الآيات بتدبر وفكر يزداد إيمانه بهذا الكتاب العظيم المعجز البليغ ، ويحس بالقشعريرة تسري في عروقه ، وبالخشية تملك إحساسه ووجدانه . . وقد أثر هذا القرآن العظيم في نفوس كثيرة فنقلها بأسرع من لمح البصر من الفظاظة والخشونة ، والجفوة والقسوة إلى اللين والخوف ، والمحبة والرقة ، وما آمن عمر بن الخطاب حتى سمع آيات من كتاب الله فأشرقت روحه إيماناً ، وامتلأ قلبه طمأنينة .

استمع الجن الى القرآن الكريم فآمنوا بوحدانية الله تعالى وقالوا : ﴿ إِنَا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً يَهْدِي إلى الرُشْدِ فَآمَنَّا به ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ، وإِنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِنا ما اتَّخَذَ صَاحِبَةً ولاَ وَلَداً ﴾[1] .

وليس هذا التأثير قاصراً على المؤمنين بل يحسه الكافرون ، ولكن الضلال يطمس على بصيرتهم وأفئدتهم ، فلا يرون الحق حقاً ، وهذا ما حدث للوليد ابن المغيرة حينما قرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من سورة فصلت : (حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَن الرَّحيم . كِتَابٌ فُصلَتْ آيَاتُهُ قُرآناً عَرَبِياً لِقَوم يَعْلَمُونَ . بَشيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍمماتَدْعونا إِلَيْهِ وفي آذاننا وقرٌ وِمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاعْمَل إنَّنا عامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلكُمْ يُوحى إليَّ أنما إلهكُمْ إلهٌ واحدٌ فاستَقِيمُوا إِلَيْهِ واسْتَغْفروهُ وَوَيلٌ للمُشْرِكينَ . الَّذين لا يُؤْتُونَ الزكاةَ وَهُمْ بِالآخِرةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾الى آخر الآيات . .

فاضطرب الوليد اضطراباً شديداً وناشد الرسولﷺ أن يكف عن القراءة ثم ذهب إلى قومه ، وقال : سمعت كلاما والله ما سمعت مثله ، ليس هو بالشعر ولا

---

(١) سورة الجن/ ١ ، ٢ ، ٣ .

بالنثر ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أدناه لمغدق[1] .

هذه هي بعض وجوه الإعجاز ، وهناك غيرها كثر مما يحتاج إلى أبحاث خاصة يضيق بها المقام هنا .

أثر الرسل في تربية الأفراد والمجتمعات :

إن الغاية المثلى من إرسال الرسل والأنبياء دعوة الناس إلى إفراد الله بالعبادة ، وإخراجهم من ظلمات الاختلاف والتخاصم في العقيدة ، وفي النظم المعاشية إلى هدى الله وشريعته ومنهجه المتسم بسمات الكمال والاستقلال والخلود ، وإن هذا الهدف العظيم وتلك الغاية السامية لا تتحقق ما لم يكن هناك رجال يطبقون الرسالة والمبدأ على واقع الحياة ، وفي كل الظروف وفي مختلف الأحوال ، واذا لم يرافق الرسالة رسول ، بقي المبدأ بعيداً عن الواقع ، غير مطبق في الحياة ، وبقيت الرسالة مجرد نظرية علم ومعرفة فقط . . ومن هنا برزت ضرورة شديدة وظهرت حاجة ماسة إلى وجود الأنبياء والرسل ، وهم خير من ينفذون أوامر الله تعالى ، وهم خير من يقومون بشرع الله ، وهم المصطفون الأخيار البررة الأتقياء .

وقد كان رسل الله ـ على اختلاف أزمانهم ـ قدوة ممتازة استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق وصالح الأعمال وفضائل النفوس حقائق واقعية متحركة .

وقد كان المصطفى المختار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يؤم الناس في الصلاة ويقول : (صلوا كما رأيتموني أصلي) ويحج مع الحجيج ويقول:(خذوا عني مناسككم) وكان ﷺ يفعل ما يأمر به ، وينتهي عما ينهى عنه ، وحرم الربا وقال :(أول ربا أضعه ربا العباس) ، وكان ﷺ يعقد الألوية للجهاد ويخرج مع المجاهدين ، وكان يقابل الوفود ويدعوهم للإسلام ويرسل الكتب إلى رؤساء الدول والشعوب ، وكان ﷺ زوجاً يحسن معاملة أزواجه يقول : (من رغب عن سنتي فليس مني) وكان يعطف على الصغار ويقبلهم ويقول : (من لا يرحم لا يُرحم) وكان ﷺ سياسياً فطناً حذقاً ، يوقع المعاهدات

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ و٣١٣ و٣١٤ وانظر السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٩٨ .

إذا لزم الأمر ، ويؤمن الناس إذا اقتضت المصلحة . . وحينما هاجر ﷺ إلى المدينة أسس مجتمعاً مثالياً راقياً يفوق كل المجتمعات الإنسانية علماً وثقافة ، وخلقاً وأدباً ، وقوة وتقى ، وصدقاً ومحبة ، وإخاء وعدلاً ، ووفاء ومراعاة للعهود والآمانات والمواثيق .

وعلى هذا فالأنبياء ليسوا فلاسفة يحلمون في مدن فاضلة ، ويضعون خططاً لرؤى خيالية ومجتمعات عاجية ، كلا وإنما هم رجال اختارهم الله لحمل الأمانة ودعوة الناس ، وقيادة الأمة وإصلاح أوضاع البشرية ، وليست الرسالة مجرد أفكار هائمة أو مبادىء تتردد في رؤوس الكبار والعظماء ، وإنما هي نظام كامل شامل لبناء الفرد السوي ، الفرد الواعي العاقل المتفاعل مع الحياة ، الإيجابي الذي يغير من السوء إلى الحسن ومن الشر إلى الخير ومن الرذيلة إلى الفضيلة وهي نظام شامل متكامل لبناء الجماعة المؤمنة التي رضيت الله رباً ، والقرآن دستوراً ، والإسلام ديناً . . وقد كان الرسل يدعون للإيمان بأركان الإيمان وهم أشد الناس إيماناً وتصديقاً .

قال الله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ وإذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرَائِيل ، إني رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَوَصى بِهَا إِبْرَاهِيم بنيه ويَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ الله اصْطَفى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَموتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[3] .

ختم النبوة والرسالة برسالة محمد ﷺ :

إن مهمة الرسل مهمة سامية ونبيلة فهم الذين يبلغون أمر الله إلى الناس ، ويخبرون عن المغيبات اليقينية التي لا بد من الإيمان بها والتسليم لها بما أعلمهم الله وبما أطلعهم على الغيب وبما اصطفاهم بوحي ومعرفة . قال جل من قائل :

---

(١) البقرة/ ٢٨٤ .

(٢) الصف/ ٦

(٣) البقرة/ ١٣٢ .

﴿ وما نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾[1] .

وهناك أسباب كثيرة اقتضت تعدد الأنبياء والمرسلين ـ منها : اختلاف البيئات والظروف ، فما ناسب أقواماً وأناساً في ظروف معينة وبيئات محددة قد لا يناسب غيرهم في بيئات أخرى وظروف مغايرة . ومنها تطور إدراك البشرية فما يدرك المتأخرون قد لا يعلمه المتقدمون ، وما يسهل على المتأخرين قد يصعب على المتقدمين ، لأن الإنسان بطبعه يرث العلم ويضيف عليه وينميه ويطوره ، فهو في ارتقاء مستمر ، والعقل الإنساني في تفتح دائم وحركة دائبة وتفاعل متواصل وانتاج مستمر ووعي متزايد ، وتدرج في مدارج الكمال والعرفان .

ومنها تأييد النبي لنبي آخر ، وتأييد الرسول لرسول آخر ليكون هذا أدعى إلى إثبات الرسالة ، وإقامة الحجة على المرسل إليهم .

ومنها : أن تعاليم النبي الأول قد يعفى عليها الزمان ، وتمحى آثارها من الحياة البشرية ، ويعودون كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض وكأنه لم يكن ثمة رسول ولا رسالة .

ومنها أن تكون شريعة نبي من الأنبياء محصورة في قوم معينين فتتوالى بعثة الأنبياء والرسل إليهم خاصة ليقوى البرهان .

ولتثبت الأدلة أمامهم فيستسلمون لها ويعترفون بها ، ومن ثم فإنهم يحملون تعاليم الأنبياء ويشيعونها فيما بينهم ، ويأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وبطاعة المرسلين والأنبياء . الأمر الذي يستدعي وجود رسالة عامة جامعة موجهة إلى البشرية قاطبة ، غير محصورة في قوم أو في بيئة معينة وبهذا تقوم الحجة على البشرية كافة ، وعلى أولئك القوم بخاصة ليظهر موقفهم من الرسالة العامة .

كل هذه الأسباب استدعت تعدد إرسال الأنبياء والمرسلين ، ولكن بعد أن وصل العقل البشري إلى أقصى مرتبة من الوعي والنضج ، وإلى أعلى مراتب الإدراك والفهم ، وعلم العلم اليقيني أن طاعة الأنبياء والرسل ضرورة هامة لنجاته من الهلاك المحتم فلزم وارتدع ، انتهت تلك الحاجة بعد رسالة محمد ﷺ إلى

---

(١) الأنعام/ ٤٨ ، الكهف ٥٦ .

إرسال الرسل ، واستقر الوضع واتبع الناس تعاليم خاتم الأنبياءﷺ .

يؤيد هذا أن رسالة محمدﷺ لم تكن خاصة بل كانت عامة سواء ﴿ قل يَا أيُّها النَّاسُ إنّي رَسُولُ الله إلَيكُمْ جَمِيعاً﴾[1] وكانت رسالته للبشر وللجان سواء ﴿ قُلْ أوُحي إليَّ أنَّه استَمعَ نَفَرٌ مِنَ الجنّ فَقَالُوا إنا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً . يَهْدي إلى الرُّشْدِ فآمَنَّا بِهِ ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبّنَا أحَداً﴾[2] .

وقد تعهد الله سبحانه ـ تفضلاً منه ـ بحفظ هذه الرسالة بما حفظ قرآنها وكتابها فقال جل من قائل :﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَه لَحَافِظُونَ﴾[3] فكانت رسالة محمدﷺ خالدة ما بقيت الحياة ، وكانت التعاليم الإسلامية ماثلة في النفوس المؤمنة بها ، مطبقة في واقع الحياة .

وفضلاً عن هذا وذاك ، فإن رسالة محمدﷺ ـ محافظة على صحتها من بين الرسالات ـ قد سلمت من التصحيف والتغيير ، والتعديل والتبديل ، فنحن واثقون بأن كل حرف من حروف القرآن الكريم ، وكل كلمة من أحاديث رسول اللهﷺ ، كل تحرك من تحركاته المباركة ، محفوظة كما أرادها الله وكما أنزلها ، وكما وضحتها السنة النبوية والسيرة العطرة .

وأخيراً فإن رسالة محمدﷺ رسالة شاملة لكافة مجالات الحياة ، العقيدية والعبادية والسياسية والإدارية والاجتماعية . . وشريعة صبغت بصبغة الشمول والعموم ، شريعة خالدة خصبة ثرية تغني عن غيرها ولا يغني غيرها عنها .

كل هذه السمات التي تتسم بها نبوة محمدﷺ من العموم والخلود والشمول والكمال والصحة تبرهن على ختم الرسالات السابقة برسالة محمدﷺ وقد أشار القرآن الكريم الى هذا المعنى بقوله :﴿ ما كَانَ محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[4] .

ولهذا فلا تنتظر البشرية اليوم مجيء نبي ولا رسالة ، فقد ختمت النبوات

---

(١) الأعراف/ ١٥٨ .
(٢) سورة الجن/ الأولى .
(٣) الحجر/ ٩ .
(٤) الأحزاب/ ٤٠ .

والرسالات ، وهي ليست بحاجة إلى رسالة لاكتفائها برسالة محمد ﷺ ، ولكنها بحاجة إلى رجال يتبعون النبي ﷺ ، ويحملون دعوته وينشرونها بين الناس ، ويعملون بهديه ﷺ ، ويدعون إلى اتباعه ويقيمون في الأرض دولة الإسلام على ضوء تعاليم خاتم المرسلين ﷺ .

الإيمان بالآخرة :

الإيمان باليوم الآخر مفتاح سعادة الإنسان وسر يقينه وهو الرباط الوثيق بين العمل والجزاء ، بين الصبر والفرج ، بين التحمل والإنعام به يشعر المؤمن أنه لم يخلق عبثاً ، وأنه ليس شيئاً مهملاً ، كيف ؟ والعدالة الإلهية تنتظره والنعيم الأبدي يترقبه ، فيطمئن قلبه وترتاح نفسه وتسر بلابله ويصبر ويتحمل ويبذل النفس والنفيس في سبيل دعوته ومن أجل إعلاء شأنها .

والإيمان بالآخرة ضابط لكل أعمال الإنسان ورقيب على كل تصرفاته فهو في كل ما يقول وفي كل ما يدع وفي كل ما يعمل يشعر بجلال ذلك الموقف العظيم الوقور ، يوم ينادى عليه من بين الخلائق وأمام الأشهاد وعلى مرأى من أعين الناس عظيمهم وحقيرهم ينادى عليه . . فيلبي ويستجيب وهل يستطيع حينذاك أن يكتم الله حديثاً ؟ أو أن يتستر على عيب أو نقص أو زلة أو خطيئة أو معصية مات عنها قبل أن يتوب منها ؟ يا لهول ذلك المشهد ، ويا لعظمته ! إنه يأخذ الأنفاس فإذا بها تلهث خوفاً ، ويمتلك الأفئدة فإذا بها تطير رعباً . .

إن الإيمان باليوم الآخر حقيقة يفرضها العقل البشري فرضاً ، ذلك لأن حياة المرء في الدنيا حياة محدودة الزمن صغيرة المدى إذا ما قيست بالعمر الزمني المديد للكون ، وقد لا تتسع هذه الحياة لأن ينال المسيء جزاءه ، بل قد يفلت من العقوبة بتكتمه وتستره على نفسه ، أو لأنه رجل قوة وجبروت وسلطة وغلبة . . فهل يعقل أن تفوت حياته كلها من غير أن يُؤخذ على يديه ؟ أم أنه من المنطق السليم أن تكون هناك حياة أخروية تتسع لما ضاقت عنه الأولى ؟ أو ليس من العدل والحكمة وجود تلك الحياة الثانية ؟

وكذلك قد يقضي إنسان حياته كلها مجاهداً طائعاً تقياً نقياً متحملاً العذاب والإيذاء ، والحقد والحرب الشديدة في سبيل دعوته . . ثم ينتهي أجله قبل أن

ينال شيئاً من الجزاء ، وحتى من بهجة النصر ، وفرحة الغلبة والعزة للدعوة . . فهل يعقل أن يذهب هذا الإنسان سدى من غير ثواب ، من غير تكريم . . ؟ إن العدالة المطلقة تقتضي وجود يوم آخر ينسيه ألمه وعذابه ، وينقله الى النعيم الأبدي الذي لا يزوال ، وقد مرّ رسول الله ﷺ ، على آل ياسر وهم يعذبون أشد أنواع العذاب ، فحرك فيهم المنطق الفطري السوي ، والإيمان القوي بيوم الدين ، ووعدهم بالجزاء العظيم والثواب الكبير يوم يكون الأمر كله لله .

إن بعث الأحياء بعد الموت ليس بعزيز على الله تعالى الذي أوجدهم من العدم ، أو ليس الإعادة أسهل من الابداع ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾[1] يستدل القرآن على إمكان البعث بالخلق الأول ، ويستدل عليه أيضاً بمظاهر الإماتة والإحياء في عالم النبات قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ ﴾[2] .

ويستدل القرآن الكريم على إمكان البعث بخلق السماوات والأرض وهي أعظم خلقة من بني آدم . قال تعالى ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ ﴾[3] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] .

---

(١) الروم/ ٢٧ .
(٢) الحج/ ٥-٧ .
(٣) يس/ ٧ .
(٤) الأحقاف/ ٣٣ .

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق والميزان العادل ، ـ ﴿ اليَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ الله سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [1] ـ ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [2] .

والجنة دار الخلد والنعيم أعدها الله تعالى لعباده الصالحين المؤمنين ، قال الرسول ﷺ في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[3] واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [4] .

والنار دار الفجار من الخلق ، وهي تجمع العقوبة الحسية المادية والروحية المعنوية . نسأل الله جنته ونعوذ به من ناره .

مزايا العقيدة الإسلامية :

للعقيدة الإسلامية مزايا أساسية تميزها عن سائر العقائد التي شابها الشرك ، أو خالطها الضلال والانحراف . وأهم هذه المزايا :

١ ـ الوضوح :

إن عقيدة التوحيد واضحة في أساسها وفي بنائها وفي مبادئها ، إنها تقوم على مبدأ واضح ، وهو أن ما نرى من كون ومن أفلاك سماوية ومن مخلوقات أرضية كلها من صنع الله تبارك وتعالى الذي تفرد بالكمال وبالإيجاد والخلق ، سبحانه له الخلق وهو على كل شيء قدير . ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ كُلٌّ له قَانِتُونَ﴾ [5] .

والأنبياء عبيد لله ومخلوقون كسائر الناس تماماً ، يمتازون عنهم بالاصطفاء

---

(١) غافر/ ١٧ .

(٢) الأنبياء/ ٤٧ .

(٣) اخرجه البخاري ١٣/ ٣٩١ في التوحيد : باب قول الله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله) ومسلم (٢٨٢٤) في أول كتاب الجنة من حديث ابي هريرة .

(٤) السجدة/ ١٧ .

(٥) البقرة/ ١١٦ .

الإلهي ، وبتبليغ رسالة التوحيد للناس .

٢ ـ ملاءمتها للفطرة البشرية :

إن الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة موافق للفطرة السوية الصافية ، بل إن الإنسان يبقى حائراً قلقاً مضطرباً نفسياً حتى يؤمن الإيمان الكامل بوجود الله ووحدانيته سبحانه وتعالى ، فإذا وصل إلى هذه المرتبة وجد الأمن النفسي والراحة الداخلية والطمأنينة القلبية ، قال الله تعالى :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَةَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

وقال الرسول الكريم ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه)[2] .

ثمرات الإيمان :

إن النتائج التي تترتب على الإيمان بوحدانية الله وبسائر أركان الإيمان كثيرة وهامة . أشير إلى بعضها فيما يأتي :

١ ـ الإيمان يشعر الفرد بكرامته ومكانته ومنزلته من الله تبارك وتعالى ، الذي خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وصوره فأحسن صورته ، وخلقه في أحسن تقويم ، وأسجد له ملائكته ، وميزه عن سائر المخلوقات بالإدراك والوعي ، وبالتعلم والمعرفة ، وبالارادة والتفكير ، والاختيار ، وجعله خليفته في الأرض ، ومحور النشاط في الكون ، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض ، وأسبغ عليه نعماً جليلة عظيمة ظاهرة وباطنة .

والمؤمن يحس بأنه قريب من الله تعالى دائماً ، لا يحتاج إلى وسيط يوصله به ، ولا إلى وسيلة تقربه منه ، ولا إلى حاجب يأذن له ، ولا إلى حارس يسمح له ، ولا إلى ملك يقربه من الله زلفى سوى العمل الصالح والنية الصافية ، والإخلاص الصادق ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي

---

(١) الروم/ ٣٠ .

(٢) متفق عليه

فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1] فإذا ناداه سمعه ، وإذا دعاه أجابه وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[2] .

وقال الرسول ﷺ ويقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإذا ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[3] .

هذه المكانة التي يتمتع بها الإنسان لم يحظ بها أي مخلوق من مخلوقات الله حتى ن الملائكة وهم عباد مكرمون تشوقوا الى هذه المكانة وهذه المنزلة الرفيعة العالية ، ويتحدث القرآن الكريم عن تشوقهم هذا فيقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِؤُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[4] .

وكل ما في الكون من أرض ونبات ، وشجر وزرع ، وأنهار وبحار ، وأفلاك ونجوم ، وكواكب وفضاء ، مسخر للإنسان لينتفع به ، ويتخذه ميداناً لنشاطه قال الله تبارك وتعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

(١) سورة البقرة / ١٨٦ .

(٢) سورة ق / ١٦ .

(٣) أخرجه البخاري ١٣/ ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، في التوحيد اباب (ويحذركم الله نفسه ، من حديث أبي هريرة .

(٤) سورة البقرة/ ٣٠-٣٣ .

اللَّيلَ والنَّهارَ ، وآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وإنْ تَعدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوهَا﴾[1]
وقال : ﴿ وسَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْـهُ ، إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] .

وإذا شعر المؤمن بهذه المكانة وهذه الرفعة ، سرت في نفسه معاني الكرامة والعزة بالحق ، فلا يطأطىء رأسه لمخلوق ، ولا يحابي جباراً . ولا يداهن طاغية ، بل ولا يستذله مال ولا منصب ولا جاه ، ولا هوى نفس ولا شهوة عارمة ، وإنما هو بإيمانه عزيز بما منحه الله من علم وكرامة .

يقول كلمة الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم . ولهذا نرى الرعيل الأول من المؤمنين كأمثال بلال الحبشي العبد تعلو نفسه وتعظم آماله ويتيه عزة ، فلا يأبه بقسوة القساة ، ولا بغلظة السادة الشرسين ، ولا بعنفوان الجبابرة الطغاة الذين يفتنونه عن دينه ، ويساومونه لينطق بكلمة الكفر . . وأنى لهم أن يحققوا مآربهم الدنيئة وقد تشربت روحه بالإيمان ، وتيقظت في نفسه معاني العزة التي تدفعه الى التضحية والثبات والتمسك بالحق أمام إغراء المغرين ، وإفساد المفسدين وضلال المضلين . . فيثبت بلال ويزداد إيماناً ويشعر أنه قد وصل إلى مرتبة أعلى وأعظم من أن ينال منه مشرك . وإن المستبدين الطاغين يستطيعون أن يعذبوا الجسم ولكنهم لن يصلوا إلى القلب العامر بكلمة التوحيد .

وهكذا نجد النفس البشرية إذا صقلها الإيمان فإنها تتحرر من الذل .

٢ ـ الطمأنينة القلبية والسكينة النفسية وراحة البال وهدوء الجنان ثمرات طيبة للإيمان قال تعالى : ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبهمْ بذِكْرِ الله ، ألاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القُلُوب﴾[3] . وقال : ﴿ هُوَ الَّذي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيمَاناً مَعَ إيمَانِهِمْ﴾[4] .

---

(١) سورة إبراهيم/ ٣٢ ـ ٣٤ .

(٢) سورة الجاثية/ ١٢ ـ ١٣ .

(٣) سورة الرعد الآية/ ٢٨ .

(٤) سورة الفتح/ ٤ .

وإذا اطمأن القلب ، وارتاحت النفس شعر المؤمن ببرد اليقين وحلاوة الإيمان وحسن الصلة بالله تبارك وتعالى ، فاحتمل الآلام بثبات وشجاعة ، وهانت عليه الخطوب مهما اشتدت ، ورأى يد الله ممدودة إليه دائماً . وأن عين الله ترعاه أبداً ، وأنه في حماية الله ، وفي كنفه ، وإذا ما ناله أذى فسيضاعف له الجزاء الحسن يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

وبهذا يسمو الإنسان على الماديات ويرتفع عن الشهوات ويتعالى على لذائذ الدنيا ومتعها الزائلة غير المشروعة ، ويرى أن الخير كل الخير في النزاهة والشرف الرفيع والنفس العالية الأبية وتحقيق القيم الصالحة ، ومن ثم يتجه المؤمن اتجاهاً تلقائياً لخير نفسه ولخير أمته ولخير الناس جميعاً ، أصل تصدر عنه الأعمال الطيبة الصالحة .

قال جل ذكره ﴿ إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ ﴾[2] وقال : ﴿ وإِنَّ اللهَ لَهادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[3]

وقد رسم القرآن الكريم نموذجاً لامرأة مؤمنة اطمأنت نفسها وسكن فؤادها وسارعت لتلبية أمر ربها الذي أوحى إليها أن تقذف ولدها في البحر ، فاستجابت لدعوة الإيمان وصدقت بكلمات ربها ورسله قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فإذا خِفْتِ عَلَيهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ . فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً ، إِن فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[4] وصدقها الله وعده فقال سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ

---

(١) سورة البقرة الآية/ ٢٥٧ .
(٢) سورة يونس/ ٩ .
(٣) سورة الحج/ ٥٤ .
(٤) سورة القصص/ ٧ ، ٨ .

وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونْ﴾[1] .

٣ ـ من ثمرات الإيمان الأمن والأمل ، فالناس يخافون من أشياء كثيرة وأمور شتى ، ولكن المؤمن سد أبواب الخوف كلها ، فلم يعد يخاف إلا الله ولم يخش إلا عقابه ، ولن يريعه إلا معصية يرتكبها ، أو مأثم يفعله . . أما الناس فلا يخافهم ولا يخشاهم ما دام يؤدي حقوقهم ولا يعتدي على أموالهم أو شرفهم أو أنفسهم . وقد دعا إبراهيم قومه إلى التوحيد ، فخوفوه بآلهتهم فتعجب من قولهم وحكى القرآن الكريم هذا الموقف بقوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونْ ، الذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونْ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينْ . وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3] .

والمؤمن آمن على رزقه أن يفوت فإن الأرزاق بيد الله . قال سبحانه ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونْ﴾[4] .

وقال جل من قائل : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾[5] وقال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[6] . بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمناً مطمئناً على رزقه .

والمؤمن آمن على أجله ، فإن الله هو الذي قدر الآجال ، وبيده أعمار الخلائق ، وما تدري نفس بأي أرض تموت . فلم يخاف من الحوادث

---

(١) سورة القصص/ ١٣ .
(٢) الانعام/ ٨١ ، ٨٢ .
(٣) سورة يونس/ ١٠٦ .
(٤) الذاريات/ ٢٢ ، ٢٣
(٥) هود/ ٦ .
(٦) العنكبوت/ ٦٠ .

والكوارث ، ولم يقعده خوفه عن الإقدام والسفر واقتحام المصاعب والجهاد في سبيل الله قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونْ﴾[1] وقال : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفْساً إذا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[2] وقال : ﴿ إِنَّ أَجَلَ الله إذا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرَ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونْ ﴾[3] وقال : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَص مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَاب ﴾[4] .

والمؤمن يشعر بالأمل ينبعث من نفسه فيدفعه قدماً نحو الأمام ، لِيُصَلِّي ويعبد ، ويثبت ويثابر ويكافح ، ويدفع عنه الكسل والخمول ، والخلود للراحة ، ويحثه على المزيد من البذل ليحصل على نتائج طيبة وافرة .

والمؤمن لا ييأس أبداً لأن اليأس يضعف الجسم ويورث الوهن والملل والقعود عن الكسب الطيب . وقد جعل الإسلام اليأس قريناً للكفر فقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلاَّ القومُ الكَافِرُونْ﴾[5] واعتبر القنوط حليفاً للضلال فقال جل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونْ﴾[6] .

وهناك فئة من الناس تيأس إذا نزل بها كرب أو حلت بها شدة ، وإلى هذه الفئة يشير قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾[7] ويستثنى من هذه الحالة المؤمنون الصابرون الذين يعملون الصالحات ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[8] .

وعلى هذا فالمؤمن لا ييأس ولا يقنط ، بل هو أوسع الناس أملاً ، وأكثرهم تفاؤلاً واستبشاراً وبعداً عن التشاؤم والتبرم والتضجر ، إذ أنه يؤمن بالله الذي يدبر الكون ، ولا يخفى عليه شيء من أمر الأرض والسماء ، وأنه ذو القوة غير المتناهية ، والعظمة التي لا تحيط بها المدارك ، والرحمة التي وسعت كل شيء ،

---

(١) الأعراف/ ٣٤ .
(٢) المنافقون/ ١١ .
(٣) نوح/ ٤ .
(٤) فاطر/ ١١ .
(٥) يوسف/ ٧٧ .
(٦) الحجر/ ٥٦ .
(٧) ، (٨) سورة هود/ ٩ ، ١١ .

والجود والكرم والمن والعطاء . . . كل هذا يورث في نفس المؤمن الأمل بما عند الله . فالله قدير رحيم يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، فلم ييأس المؤمن ولم يقنط ؟ وهو يعلم أن الله يقبل من العمل ما قل ويجزي الجزاء الكثير . ويغفر الذنوب وإن بلغت عنان السماء ، ويعفو عن السيئات ، ويقبل التوبة سبحانه وتعالى ، وهو الذي يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل ، وأنه أشد فرحاً بتوبة عبده من الإنسان الذي ضيع راحلته وزاده في فلاة حتى إذا ما أعياه البحث وكادت زهرة الأمل تجف في نفسه وجد الراحلة والزاد . .

والمؤمن يأمل بقرب الفرج وزوال العسر ، ودنو اليسر ذلك لأنه يردد دائماً قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾[1] وهل يغلب عسر واحد يسرين ؟

كما أنه يثق بعون الله وبوعده للمؤمنين الصابرين المجاهدين بالنصر المبين ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً . يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾[3] .

الإيمان يولد الرضا والحب :

الرضا عن الله وعن الذات والاطمئنان إلى اليوم والحاضر ثمرة من ثمرات الإيمان ، وسر من أسرار السعادة . قال الله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[4] ويتجلى الرضا عند الله تعالى بمظاهر جليلة أهمها أن يتجه المؤمن إلى الله سبحانه ويستخيره في شأنه ، قبل أن يبادر إلى أي عمل يعمله مهما كان هذا العمل عظيماً أو بسيطاً . وقد كان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن .

---

(١) سورة الانشراح / ٥ ـ ٦

(٢) سورة الصافات/ ١٧٣ .

(٣) سورة النور/ ٥٥ .

(٤) سورة البينة/ ٨ .

وها هو جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن ، يقول : إذا هم أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري . أو قال : عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به . قال ويسمي حاجته)[1] .

فالمؤمن يتجه إلى الله تعالى يستخيره قبل الإقدام على العمل ، ثم يرضى بما قدره الله له من رزق ونعم وعطاء ، حتى المصيبة تصيبه والضرر يحل به فيصبر ويحتسب إيماناً بأن الله لا يفعل شيئاً عبثاً ولا يقضي أمراً إلا ولما فيه صلاح شأن العبد كان ذلك إيذاناً برضاه ودليلاً على اطمئنانه إلى قدر الله وقضائه إذ أنه سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

والإيمان يولد في النفس المؤمنة الحب الكبير الذي يمنح الأمن الروحي ، والسعادة الداخلية ، ويشعر الآخرين بالاطمئنان والكرامة الإنسانية : فالمؤمن يحب الله ورسوله أكثر من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه ، ويحب الناس من أجل الله تعالى ، فيعطف على صغيرهم ، ويرعى يتيمهم ، ويعطي محرومهم . ويصل ذوي القرابة والرحم وقد قيل : (إن الحب يحول المر حلواً ، والتراب تبراً ، والكدر صفاء ، والألم شفاء ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة)[2] .

فالمؤمن بسبب إيمانه يشعر بفضل الله عليه وإنعامه عليه فهو واهب الحياة وهو مصدر الخلق والأمر والإيجاد ، فالمؤمن يتجه إلى الله بقلبه ومشاعره وأحاسيسه ، فيحبه ويخشاه في آن واحد ، الحب الذي يدفعه إلى طاعته وامتثال

---

(١) رواه البخاري انظر رياض الصالحين ٢/ ١٦٩ .

(٢) عن كتاب رجال الفكر والدعوة في الإسلام للأستاذ ابي الحسن الندوي ص ٢٨٨/ ٢٨٩ .

أمره والقيام بالفرائض المطلوبة في أوقاتها المحددة . والخشية التي تمنعه من الاجتراء على المعصية .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله . وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[1] .

والمؤمن يعتقد أن الطبيعة كلها مخلوقة من مخلوقات الله ، وأثر من آثار قدرته وميدان فسيح ليتفكر الناس في بديع صنع الله . وفي عجيب تكوينه وقد أثر عن الرسول ﷺ (أحد جبل يحبنا ونحبه)[2] ـ فأين هذا الاعتقاد الصحيح الصادق من الاعتقاد الباطل الذي كان مسيطراً على عقول كثير من الناس في القرون الوسطى وإلى هذا العصر من أن النور مملكة لإله الخير ، وأن الظلام مملكة لإله الشر . . وقد سمعنا كثيراً أن الملحدين يقدسون الطبيعة ويعتبرون أن لها إرادة ، وبيدها قدرة الإيجاد والإحياء ، وهذا وهم باطل وزعم مفترى لا يصدر عن رجل واع جاد في دعواه ، وإنما هو كلام أشبه بالهراء .

والمؤمن يرى أن الحياة التي يعيشها فرصة ذهبية للقيام بالطاعات وبالإكثار من العبادة ، والعمل الصالح والبر بالآخرين ، وإقامة صلات الود والمحبة مع المؤمنين خاصة .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ (خير الناس من طال عمره وحسن عمله)[3] .

والمؤمن يحب الناس جميعاً لأنهم أخوة له في الإنسانية ، وشركاء له في العبودية لله تعالى ، قال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾[4] .

---

(١) متفق عليه رياض الصالحين مع شرحه ١/ ٥٦٨ .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن انظر رياض الصالحين مع شرحه ١/ ٢١٦ .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٠) والدارمي ٢/ ٣٠٨ ، واحمد ٤/ ١٨٨ و ١٩٠ ، وقال الترمذي حديث حسن وله شاهد من حديث ابي بكرة في « المسند » ٥/ ٤٠ و٤٣ و٤٨ و٤٩ و٥٠ ، والترمذي (٢٣٣١) فالحديث يصح به .

(٤) سورة النساء الآية/ ١ .

وفي الدعاء عن رسول الله ﷺ : (اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة)[1] .

والمؤمن يخص المؤمنين بالحب والولاء ، إذ أن الحب يحتاج إلى بذل وتضحية وإيثار ، والكافر لا يؤمن شره ولا يرجى خيره ، وقد كفر بخالقه وجحد نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، فكيف يوثق به ؟ وكيف يتودد اليه ؟ قال تعالى ﴿ وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[2] .

وقد أخبر الصادق المصدوق أن المرء مع من أحب ، فلينظر الإنسان إلى من يخالل ، فإن كان كافراً فليستغفر ربه . وإن كان مؤمناً فان خليله يذكره بالله ، ويمحضه النصح والإرشاد ، ويوجهه الى فعل الخير وينهاه عن المنكر قولا وفعلا ، فهذا هو المؤمن الحق ، وتلك هي ثمرة الإيمان ، وليهنأ بنعمة الحب لله وقد قال الرسول ﷺ في الحديث القدسي : (قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء)[3] .

وقد دلنا الرسول ﷺ على زورق الوصول إلى المحبة في الله ألا وهو إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، وإقراء الضيف ، وأن يلقى المسلم أخاه بوجه طلق ، وأن يفرج عنه كربة من كرب الدنيا ، وأن ييسر على معسر ، وأن يستر مسلماً ابتغاء وجه الله ، وأن يمسك لسانه عن القيل والقال ، وليقل خيراً أو يصمت[4] . . وهكذا رسم لنا رسول الله ﷺ طريق الحب لله ، وإنها لصورة رائعة لمجتمع مسلم فاضل متمسك بالقيم الإيمانية مطبق شريعة الله ومنهجه قال سبحانه :﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[5] .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود

(٢) سورة التوبة/ ٧١ .

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح انظر رياض الصالحين ١/ ٥٧٥ .

(٤) رواه مسلم ، انظر رياض الصالحين مع شرحه ١/ ٥٧٣ .

(٥) سورة البقرة/ ٢٥٦ .

وقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم)[1] .

وماالفائدةمن الإيمان إذالم يثمر حباً طيباً رحباًساميارفيعاً بين أفرادالمجتمع المسلم ؟ إذ أن الحب هو الذي يساعد على التماسك والتعاضد والتناصر بين الأفراد إذا ما حل خطب بالمجتمع ، أوداهمه عدو مشترك ، أو أصاب بعض أفراد أمر خطير ، وهنا نلحظ المعنى السامي والتعبير البليغ الذي ذكره الرسول ﷺ حينما قال:(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[2] وقال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[3] (وقال : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ـ قيل هذا إذا كان مظلوماً ، فكيف إذا كان ظالماً قال أن تأخذ على يده)[3] .

وفي الحديث القدسي الذي رواه معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : (وجبت محبتي للمتحابين في والمتجالسين في والمتزاورين في والمتبادلين في)[4] .

وهكذا فالمؤمن بعقيدة التوحيد يحب الوجود كله ، يحب الله تبارك وتعالى ، ويحب الطبيعة ويعتقد أنها مخلوقة لله تبارك وتعالى خاضعة له خضوع سائر العباد للمعبود الواحد الأحد ، ويحب الحياة ويعتبرها فرصة غالية لتحقيق غاياته الجسام ، وهو يحب المؤمنين ويكره الشيطان وأولياؤه من الكفرة والزنادقة المارقين من الدين .

---

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي واحمد

(٢) رواه البخاري في الأدب

(٣) رواه البخاري في المظالم

(٤) حديث صحيح رواه مالك في الموطأ انظر رياض الصالحين مع شرحه ١/ ٥٧٦ .

المبحث الثاني
الشريعة الإسلامية ومصادرها

المعنى اللغوي لكلمة الشريعة :

الشرع مصدر شرع بالتخفيف ، والتشريع مصدر شرع بالتشديد . والشريعة في الاستعمال اللغوي مورد الماء الذي يقصد للشرب ، ثم استعملها العرب في الطريقة المستقيمة ، وذلك باعتبار أن مورد الماء سبيل الحياة والسلامة للأبدان . وكذلك الشأن في الطريقة المستقيمة التي تهدي الناس إلى الخير ، ففيها حياة النفوس وري العقول .

المعنى الاصطلاحي للشريعة :

يراد (بالشريعة) كل ما شرعه الله للمسلمين من دين سواء أكان بالقرآن الكريم نفسه ، أم بسنة الرسول ﷺ ، فالشريعة على هذا تشمل أصول الدين : أي ما يتعلق بتوحيد الله تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وكل ما يتعلق بالدار الآخرة وغير ذلك مما يدخل في بحوث علم التوحيد . كما تشمل كل ما يرجع إلى تهذيب النفس ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة مما يتصل بالعلم والأخلاق .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الشريعة تشمل أحكام الله لكل عمل من أعمال العباد من حل أو حرمة أو ندب أو إباحة أو كراهية وهو ما يعرف باسم الفقه .

فالشريعة في الاصطلاح - هي كل ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - سواء كانت متعلقة بكيفية عمل من الأعمال وتسمى فرعية وعملية ، وقد دون لها علم الفقه ، أو بكيفية الاعتقاد وتسمى أصولية واعتقادية ، ودون لها علم الكلام .

الفرق بين الشريعة والفقه :

وقد فرق علماء الأصول بين كلمة الشريعة والفقه ، فجعلوا الشريعة مرادفة للدين ، وليست قاصرة على الفقه وحده إذ أنه لا يتعرض لموضوع الاعتقاد .

وقد عرفت اللغة العربية كلمة (الشريعة) قبل كلمة (الفقه) بزمن طويل ، ذلك لأننا نجد مادة (شرع) ومشتقاتها قد وردت في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز الحميد . كقوله جل من قائل :﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾[1] .

أما كلمة (الفقه) فإنها لم تأخذ معناها الاصطلاحي إلا بعد مضي صدر من الإسلام . يقول ابن خلدون في مقدمته :

(الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة ، وهي متلقاة من الكتاب والسنة . وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها (فقه)[2] .

الفقه الإسلامي ومصادره :

إن الفقه الإسلامي جزء من الشريعة ، وقد اعتاد العلماء أن يطلقوا عليه اسم التشريع الإسلامي .

والفقه في اللغة معناه الفهم . وفي الاصطلاح : استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية .

ولم ينشأ التشريع الإسلامي كاملاً مرة واحدة ، بل تدرج في مراحل النمو والنضج إلى أن بلغ قمة الكمال .

ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أستكمل التشريع أصوله الأساسية التي استوى عليها قائماً شامخاً كالطود العظيم .

ولم يبق للعلماء بعد عهد النبوة المجيد إلا الرجوع إلى ما تم في حياته ﷺ ،

---

(١) سورة الجاثية / ١٨ .

(٢) المقدمة ١/ ٦٥ .

واستلهام ما أوحى الله إليه من كتاب وسنة ، ثم التفريع والتطبيق حسب الظروف والأزمان والأحوال والمصالح .

مصادر التشريع :

قد دل سبحانه وتعالى على ما شرعه من الأحكام بأدلة عديدة ، فبعضها دل عليه بنصوص القرآن ، وبعضها دل عليه بسنة رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير . وبعضها دل عليه بطريق أشير إليه ، أو بوضع أمارة على الحكم المطلوب في الواقعة .

وهذه المصادر يعبر عنها تارة بأدلة الأحكام ومرة بأصول الأحكام وأخرى بمصادر الاجتهاد . وكلها كلمات مترادفة معناها واحد ، وقد عرف الأصوليون الدليل بأنه ما يستفاد منه حكم شرعي عملي على سبيل القطع ، وأما ما يستفاد منه الحكم على سبيل الظن فهو أمارة وليس دليلاً ، لكن المشهور في اصطلاحهم أن الدليل هو ما يستفاد منه حكم شرعي عملي مطلقاً ، سواء أكان على سبيل القطع أم على سبيل الظن .

والأدلة الشرعية التي تستفاد منها الأحكام ترجع إلى أربعة هي : القرآن ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وهذه الأدلة الأربعة اتفق جمهور العلماء على الاستدلال بها في الجملة ، واتفقوا على انها مرتبة في الاستدلال بها هذا الترتيب : القرآن فالسنة فالاجماع فالقياس . أي أنه إذا وقعت واقعة نظر في القرآن أولاً ، فإن وجد فيه الحكم أمضى ، وإن لم يوجد فيه الحكم نظر في السنة ، فإن وجد فيه الحكم أمضى ، وإن لم يوجد فيها الحكم نظر في إجماع المجتهدين في عصر من العصور ، فإن وجد فيه الحكم أمضى ، وإن لم يوجد اجتهد في الوصول الى حكم الواقعة بالقياس على ما ورد النص بحكمه .

والبرهان على الاستدلال بها هو قول الله تعالى : ﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأطيعوا الرَّسول وأولي الأمر مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1] .

---

(١) سورة النساء / ٥٩ .

فالأمر بطاعة الله وطاعة رسوله أمر باتباع القرآن والسنة ، والأمر بطاعة أولي الأمر من المسلمين ، أو باتباع ما اتفقت عليه كلمة المجتهدين من الأحكام ، لأنهم أولو الأمر التشريعي من المسلمين . والأمر برد الوقائع المتنازع فيها إلى الله والرسول أمر باتباع القياس حيث لا نص ولا إجماع ، لأن القياس فيه رد المتنازع فيه إلى الله وإلى الرسول ﷺ ، لأنه إلحاق واقعة لم يرد نص بحكمها بواقعة ورد النص بحكمها لتساوي الواقعتين في علة الحكم . فالآية الكريمة تدل على اتباع هذه الأربعة .

وأما الدليل على ترتيبها في الاستدلال بها ، فهو ما رواه البغوي « عن معاذ ابن جبل أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله . قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو[1] (أي لا أقصر في اجتهادي) فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله » .

وما رواه البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به ، وإن لم يكن في الكتاب ، وعلم عن رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى بها ، فإن أعياه أن يجد في سنة رسول الله ، جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به ، وكذلك كان يفعل عمر ، وأقرهما على هذا كبار الصحابة ورؤوس المسلمين ، ولم يعرف بينهم مخالف في هذا الترتيب .

وتوجد أدلة أخرى عدا هذه الأدلة الأربعة لم يتفق جمهور المسلمين على الاستدلال بها ، بل منهم من استدل بها على الحكم الشرعي ، ومنهم من أنكر الاستدلال بها . وأشهر هذه الأدلة المختلف فيها : الاستحسان ، والمصلحة المرسلة والعرف . . وهي في الواقع داخلة ضمنا في المصادر الأربعة الأساسية ، فالاستحسان قياس خفي ، والمصلحة مرعية ، والعرف معتبر .

وإليك الكلام عن المصادر المتفق عليها بقدر الحاجة إليها وأما المختلف

---

(١) رواه ابو داود في كتاب الاقضية .

فيها فليس لاستيفاء الحديث عنها مجال في هذا المقام

أولا ـ المصدر الأول القرآن الكريم : والحديث فيه يتضمن النقاط الآتية :

تمهيد ـ أسماء القرآن الكريم ـ نزوله منجماً ـ الآيات المكية والمدنية ـ جمع القرآن الكريم ـ أسلوب القرآن في الطلب والتخير ـ أساس التشريع ـ أنواع الأحكام الواردة فيه ـ دلالته على الأحكام .

تمهيد هو كتاب الله المبين ، أنزله هدى ورحمة للعالمين ، وأبان به الرشد من الغي ، فكان أساساً للدين وعمدة للملة ، وينبوعاً للحكمة وآية للرسالة الإسلامية ، ونوراً للأبصار والبصائر .

قال تعالى :﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] وقال جل ذكره : ﴿ ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ﴾[2] .

فهذا القرآن العظيم حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ولا تقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد .

ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين[3] .

هذا وقد عني الأصوليون بتعريف القرآن وتحديده ليتبين ما تجوز به الصلاة وما لا تجوز ، وما يكون حجة في استنباط الأحكام وما لا ينهض بذلك ، وما يكفر جاحده وما لا يكفر فقالوا : « القرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد ﷺ ما بين دفتي المصحف باللفظ العربي المنقول بالتواتر المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس وهو المنزل على محمد ﷺ لفظاً ومعنى وأسلوباً » .

وعلى هذا فليس منه ما أنزل الله تعالى على نبيه من أحكام وأداها بأسلوبه

---

(١) سورة النحل الآية (٨٩) .

(٢) سورة الأنعام الآية (٣٨) .

(٣) تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ السايس وزميله ص ٣٢ .

الخاص ، كما ليس منه ما ثبت من الحديث القدسي ، وهو ما أثر نزوله على النبي ﷺ ، ولم يثبت نظمه من قبله في سلك القرآن ، وكذلك ما نزل من الكتب السماوية على الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل والزبور لعدم اعتبارها قرآناً[1] .

وتفسير القرآن وترجمته ليسا من القرآن في شيء ، فلا تجري عليهما أحكام القرآن الخاصة .

وكذلك القراءة الشاذة ، وهي التي لم تنقل بالتواتر كقراءة ابن مسعود ﴿ فَإِنْ فَاءُوا « فِيهِنَّ » فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقراءته أيضاً : ﴿ وعلى الْوَارِثِ ﴾ ذي الرحم المحرم مِثْلُ ذَلِكَ . وقراءته في كفارة الأيمان : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ ﴾[2] .

ولقد أحصيت آيات القرآن الكريم فبلغت ستة آلاف وثلاثمائة واثنتين وأربعين آية . وقد انتظمت هذه الآيات في سور بلغ مجموعها مائة وأربع عشرة سورة ، أولها سورة (الحمد) وآخرها سورة (الناس) .

أسماء القرآن الكريم :

وللقرآن أسماء أخرى تطلق عليه ، منها (الكتاب ، الفرقان ، الذكر التنزيل ، وغيرها) وهذه الأسماء والأوصاف قد استعملها القرآن في كثير من المواطن .

وقد نزل القرآن (منجماً) بحسب الحوادث المتجددة ، فأحياناً كانت تتنزل ثلة من الآيات ، وأحياناً آية واحدة أو بعض آية ، وذلك ليكون في هذا التنزل المستمر ، تلبية لما يتجدد من الأحداث والمشاكل ، وتقوية لرسول الله ﷺ في قصص الأنبياء السابقين ، وما لاقوه مع قومهم من مشقة وعنت وتدعوه إلى الصبر والاحتمال لئلا يتطرق اليأس إلى قلبه والحزن إلى نفسه ، وهذا التدرج ـ يساعده على حفظ الآيات واستذكارها ، وتلقينها لصحابته الذين كانوا يعكفون على حفظها والعمل بمقتضاها .

---

(١) انظر علم الأصول لخلاف ص ٢٤ .

(٢) انظر المستصفى ١ / ١٠٠ ـ ١٠١ ، تاريخ التشريع للشيخ الخضري ص ٩ ـ ١٦ ، تاريخ التشريع للشيخ السايس وزميله ص ٣٢ وما بعدها ، روضة الناظر وجنة المناظر ص ١٨٥ ـ ١٨٨ .

وبالإضافة إلى هذا فإن نزول القرآن بشكل متدرج كان يهدف إلى التدرج في الأحكام لئلا تنزل دفعة واحدة فيكون فيها الحرج والمشقة على الناس ، ولذلك فإن الأحكام التي تنزل كانت تتناسب مع الأحداث الجارية فتعرض لنا ، مبينة حكمها موضحة ما غمض منها ، مرشدة للطريق السوي . وقد ابتدأ نزول القرآن ـ على أصح الروايات ـ ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول الكريم في غار حراء حيث كان يتعبد به . .

أول آية نزلت قوله تعالى : ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وآخر ما نزل منه قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونْ ﴾[1] .

الآيات المكية والمدنية :

لقد نزل القرآن الكريم في مرحلتين تاريخيتين : الأولى : المرحلة المكية وهي ما قبل هجرة المسلمين والرسول ﷺ إلى المدينة المنورة . والثانية : المرحلة المدنية . وهي مرحلة ما بعد الهجرة المباركة . فما نزل من القرآن الكريم في المرحلة الأولى يسمى بالآيات المكية . وما نزل بعد الهجرة يسمى بالآيات المدنية .

ولم ترتب آيات القرآن الكريم حسب النزول الزمني ، وإنما على ترتيب خاص يرجع إلى الوحي الذي أشار على الرسول ﷺ بهذا الترتيب لحكمة بالغة لا تدركها العقول البشرية ، ولهذا نرى تداخلاً بين الآيات المكية والمدنية .

وليس لأي إنسان مهما بلغ في مراتب التقى والورع أن يبدل هذا الترتيب ، لأننا تلقيناه متواتراً عن رسول الله ﷺ توقيفا على أمر الوحي ، وسنبلغه إلى الذين من بعدنا بهذا الترتيب لأننا أمة متبعة غير مبتدعة .

وقد قامت محاولات تبشيرية استشراقية لتغيير ترتيب القرآن الكريم ظناً منهم أنهم يستطيعون أن يرتبوه حسب النزول التاريخي ، ولكن هذه المحاولات

---

(١) سورة البقرة / ٢٨١ .

باءت بالفشل الذريع وبالخطأ الجسيم لعدم اعتمادهم على روايات صحيحة موثوقة . فضلاً عن أن كل حركة استشراقية وغيرها من الحركات التي تهدف إلى تبديل الترتيب القرآني لا تخلو من دس وطعن ، وليست نزيهة عن الأغراض الخبيثة والنوايا اللئيمة التي تحاول بشتى الوسائل إثارة الفتن والشبهات حول المصادر الشرعية للإسلام . وعلى المسلمين أن يكونوا دائماً على حذر من كل فكر غربي ومن كل رأي مستورد .

والآيات المكية تختلف عن الآيات المدنية أسلوباً وموضوعاً والاختلاف في الأسلوب يؤكد مسألة الإعجاز القرآني ويبرزه ، أما اختلاف الموضوع فيرجع إلى طبيعة التطور المرحلي والتاريخي ، كما يرجع للظروف والأحداث والمناسبات التي مرت بها الدعوة الإسلامية .

فالموضوع الذي تعالجه الآيات المكية في بداية الدعوة حيث كان الجهد موجهاً لتثبيت العقيدة الصحيحة في نفوس المؤمنين ، وغرس مبادىء الأخلاق الكريمة في الضمائر والأفئدة ، يختلف عن موضوع الآيات المدنية حيث اتسعت آفاق الحياة وكثرت المعاملات وتعددت الأمور التي تحتاج إلى تنظيم وتقنين .

ومن الخصائص الأسلوبية للآيات المكية أنها ذات نبرة خاصة ، وإيقاع مؤثر يتمثل في ألفاظ قوية ، وجمل مختصرة وصور معبرة ، وأمثال موضحة ومشاهد حية ، وأما الخصائص الموضوعية لهذه الآيات فقد كانت تتناول قضايا الخالق والخلق والجنة والنار والدنيا والآخرة والموت والبعث ، وعالم الغيب والشهادة والملائكة والجان . . لهذا فقد كانت هذه الآيات تستخدم أسلوب المناقشة والحوار ، والمجادلة وتدعيم الحقائق بالأدلة العلمية والبراهين الفكرية والقسم . وما أشبه ذلك . . كل هذا للوصول إلى مبادىء الإيمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، ومناقشة المشركين ودحض معتقداتهم وتسفيه عقولهم والدعوة إلى الأخلاق القويمة والاستقامة في السلوك والصدق في القول .

أما الآيات المدنية فتتميز بالأسلوب التشريعي الهادىء ، والسور الطويلة ، والموضوعات التي تتناول قضايا جديدة يعيش في ظلها المسلمون في المدينة المنورة ويحتاجون إليها كالقتال والحرب ، والسلم والغنائم ، والمعاملات والبيوع ، والزواج والطلاق ، والنفقات والإرث والوصية . ومسائل الحكم

والأنظمة الداخلية والسياسة الخارجية ، وغير ذلك من القضايا التي يحتاجها مجتمع مسلم يبني حياته على مقومات إسلامية .

جمع القرآن الكريم :

يطلق الجمع ـ في كلام أهل القرآن ـ إما على حفظه جميعه عن ظهر قلب ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[1] وإما على جمع متفرقه في صحف ثم جمع تلك الصحف في مصحف واحد ، مرتب الآيات والسور على النحو الذي تلقته الأمة من النبيﷺ . .

والجمع بالمعنى الثاني هو الذي نقصده هنا . .

والثابت أن القرآن لم يجمع على عهد النبيﷺ في مصحف واحد .

عن زيد بن ثابت . قال : ﷺ ـ ولم يكن القرآن الكريم قد جمع في شيء »[2] .

وربما كان ذلك لأن القرآن الكريم ظل عشرين سنة أو يزيد ينزل منجماً . ولأن النسخ كان يرد على بعض الآيات فلو جمع القرآن وقتئذ ثم رفعت تلاوة بعضه (لأدى إلى الاختلاف واختلاط الدين ، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ)[3] .

وقيل في هذا أيضاً أن الله تعالى كان أمن النبيﷺ من النسيان بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ إِلاَّ مَا شَاءَ الله ﴾[4] أي ما شاء الله أن يرفع حكمه بالنسخ ، فلما توفي النبيﷺ أصبح النسيان ممكن الوقوع من الناس ، ومن هنا أصبحت الحاجة ماسة إلى جمع القرآن وحفظه وتدوينه »[5] .

ولقد ثبت في الصحاح عن عائشة رضي الله عنها وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن جبريل كان يعارض النبيﷺ بالقرآن ، في كل عام مرة ، فلما كان العام

---

(١) سورة القيامة / ١٧ .

(٢) فتح الباري جـ ٩ ص ٩ . الإتقان في علوم القرآن جـ ١ ص ٥٧ .

(٣) البرهان للزركشي جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٤) سورة الأعلى / ٦ .

(٥) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١ ص ٢٣٨ .

الذي قبض فيه عارضه به مرتين ، والعرضة الأخيرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره ، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون بكتابتها في المصاحف[1] وقد شهد زيد العرضة الأخيرة التي بين فيها ما نسخ وما بقي ، وكتبها لرسول الله وقرأها عليه ، وكان يقرىء الناس بها حتى مات ، ولهذا اختير للجمعين البكري والعثماني[2] .

والنبي ﷺ - في حياته - كان بين ظهراني المسلمين يقرؤون القرآن بين يديه ، ويملكون الاسترشاد به في شأن هذا الكتاب وفي كل شأن ولذلك كان الخطأ في القرآن على عهده مأموناً تماماً .

وفي ذلك العهد ، كان الإسلام الناشىء لا يزال محدود الرقعة ، فلم تكن الحاجة إلى جمع القرآن في نفس شدتها على عهد أبي بكر ثم عهد عثمان .

والثابت أن النبي ﷺ كان يستحفظ أصحابه ما ينزل عليه من القرآن عقب نزوله ، وكان له كتاب ، يكتبون بين يديه بأمره وإقراره - ما ينزل عليه .

روى أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وصححه ابن حبان والحاكم عن ابن عباس عن عثمان قال : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان ، ينزل عليه من السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنه فيقول : ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا .

وكانوا على ما اعتاد العرب - يكتبونه في اللخاف[3] والعسب[4] ، والرقاع وقطع الأديم[5] ، والأكتاف[6] .

روى البخاري عن البراء قال : لما نزلت ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة النساء ٩٥) قال النبي ﷺ : ادع لي زيداً (يريد زيد بن

---

(١) ابن تيمية في قول النبي ﷺ نزل القرآن على سبعة أحرف ص ٥٠ و٥١ .

(٢) البرهان للزركشي جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٣) اللخاف واحدتها لخفة بضم اللام وسكون الخاء - وهي الحجارة الدقاق ، وقال الخطابي : صفائح الحجارة الرقاق ، قال الأصمعي : فيها عرض ودقة ، وفسره أبو ثابت بالخزف وهي الآنية التي تصنع من الطين المشوي .

(٤) جمع عسيب وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض .

(٥) الجلد المدبوغ (المصباح المنير) .

(٦) جمع كتف ، مثل كذب وكذب ، وهو العظم العريض للشاة أو البعير كانوا إذا جف يكتبون عليه . .

ثابت) وليجيء بالكتف والدواة . .

والمسلمون مجمعون على أن الصحابة ما كانوا يكتبون إلا ما كانوا يقطعون بسماعه من النبي ﷺ .

وتوفي رسول الله ﷺ فقام بالأمر بعده أبو بكر ، وارتد بعض العرب عن الإسلام ، وظهر مسيلمة وأصحابه يدعون النبوة فتصدى أبو بكر لقتال هؤلاء جميعاً ، وقتل من الصحابة وقتئذ ممن حفظ القرآن جمع كبير فأثار ذلك الخوف على القرآن الكريم . فكان أول جمع كتابي له .

يروي البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع فيقول :
(. . . عن زيد بن ثابت قال :

أرسل إليَّ أبو بكر ـ عقب مقتل اليمامة ـ فإذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إن عمر أتاني ، فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراءة القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل في المواطن (يعني التي فيها القتال) فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، فقال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني ، حتى كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه .

قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

فقال : هذا والله خير .

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر التوبة ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ . . . ﴾ الآية ١٢٨ / مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين ، لم أجدها مع أحد غيره ، فألحقتها في سورتها .

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى قبض ثم

عند حفصة بنت عمر[1] وحفصة هي إحدى زوجات الرسول ﷺ ، وكانت تحفظ القرآن وكانت قارئة كاتبة وكان أبوها عمر أوصى إليها .

ويقول ابن حجر في شرح صحيح البخاري : « إن أبا خزيمة لم ينفرد بها ، بل كان معه عمر ، وزيد بن ثابت ، وعثمان ، وأبي بن كعب ، وواضح من كلام زيد بن ثابت نفسه أنه كان يعرف هاتين الآيتين .

ومع أن الصحابة كانوا قد شاهدوا تلاوة القرآن الكريم من النبي ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة ، ومع أن القرآن كان مكتوباً فعلاً في عهد النبي ﷺ إلا أنه كان مفرقاً ، فإن الجمع في عهد أبي بكر الصديق (كان بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر ، فجمعها جامع . وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء) وإن هذا الجمع قد اتبع فيه المنهج الدقيق الذي أعان على وقاية القرآن الكريم من كل ما يكون مظنة النسيان والضياع .

ويمكن أن نلخص منهجهم في جمع القرآن الكريم بالنقاط التالية :

١ ـ كان كل من تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن يأتي به .

٢ ـ كانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب .

٣ ـ كان لا يكتب إلا :

(١) من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ ، مع المبالغة في الاستظهار والوقوف عند هذا .

(٢) وما ثبت أنه عرض على النبي ﷺ ، عام وفاته ، دون ما كان مأذوناً فيه قبلها .

٤ ـ وكانت كتابة الآيات والسور على الترتيب والضبط اللذين تلقاهما المسلمون من رسول الله ﷺ .

٥ ـ وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان ، أي أنه لم يكن يكتفي بمجرد وجدان الشيء مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً .

---

(١) البرهان للزركشي ١/ ٢٣٣ وما بعدها، الإتقان للسيوطي ١/ ٥٧ .

٦ ـ وبأمر أبي بكر ، كان عمر وزيد يقعدان على باب المسجد ـ وهو وقتئذ مقر لجنة الجمع ـ ليكتبا ما يشهد عليه الشاهدان .

جمع عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه :

تلقى الصحابة القرآن ، عن النبيﷺ ، ثم انتشروا بعيداً عن منزل الوحي يلقنون الناس القرآن على النحو الذي تلقوه من النبيﷺ .

وفي سنة (٢٥) من الهجرة ، السنة الثالثة أو الثانية من خلافة عثمان ، بعد أن قبض الرسولﷺ بخمس عشرة سنة ، فتحت أرمينية ، وكان عثمان أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك ، وكان حذيفة بن اليمان[١] من جملة من غزا معهم ، وكان هو على أهل المدائن ، وهي من جملة أعمال العراق .

وتنازع أهل الشام وأهل العراق في القرآن : أهل الشام يقرؤون بقراءة أبي ابن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبدالله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضاً[٢] .

ورأى حذيفة ناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد ، ورأى أهل البصرة يقولون مثل هذا وأنهم قرؤوا على أبي موسى ويسمون مصحفه (ألباب القلوب)[٣] .

وغضب حذيفة لما سمع ، واحمرت عيناه ثم قام ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : هكذا كان من قبلكم اختلفوا والله لأركبن إلى أمير المؤمنين .

وجاء مفزعاً إلى المدينة ، ولم يدخل بيته حتى أتى عثمان ، فقال له : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى[٤] أو قال : أنا النذير فأدركوا الأمة . فاستشار عثمان الصحابة ، قال : ما تقولون في

---

(١) صحابي مشهور ، شهد أحد مع أبيه ، وروى عنه جماعة من كبار الصحابة .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ٩ ص ١٤ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ٣ ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٤) . . ذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة ، والسامرة يخالفونهم في ألفاظ كثيرة ومعان أيضاً . والنصارى بأيديهم توراة (العتيقة) وهي مخالفة لتلك النسختين فأما الأناجيل فأربعة : مرقس ، لوقا ، متى ، يوحنا وهي مختلفة أيضاً .

هذه القراءة : فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك .

قال الصحابة : فما تشير به ؟ قال أرى أن تجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف . فقال الصحابة : فنعم ما رأيت .

هنالك أرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف يريد ما كان أبو بكر قد أمر زيد بن ثابت بجمعه ، فنسخ منها ثم ردها .

وأمر عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام بنسخ هذه الصحف في المصاحف .

وأرسل عثمان إلى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف ، والمشهور أن هذه المصاحف أربعة : وجه واحداً إلى الكوفة والثاني إلى البصرة والثالث إلى الشام وأمسك عنده الرابع .

روي عن الإمام علي رضي الله عنه قوله : لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل ، وفي رواية لو لم يصنعه لصنعته .

يقول الزركشي ـ رحمه الله ـ (لقد وفق عثمان ـ رضي الله عنه ـ لأمر عظيم ، ورفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة) .

الأسلوب القرآني في الطلب والتخيير :

إن للقرآن الكريم أسلوباً خاصاً في بيان الأحكام وفي الدلالة على تحريم الأشياء أو إباحتها أو طلبها . . فلم يأت بما قد تسأمه النفوس من التعبير عن الحرام بكلمة (حرام) فقط ، بل أتى بأساليب متنوعة منها التحذير ومنها الوعيد والتهديد ، ومنها بيان المضار التي تحيق بالإنسان ومجتمعه إذا ما ارتكب تلك الأفعال . . وغير ذلك من الأساليب المختلفة التي اقتضتها بلاغته ليكون مشوقاً وباعثاً على القبول وحب الامتثال ، فنراه يسوق الأحاديث ممزوجة بالتبشير تارة ترغيباً في الفعل ، وتارة بالإنذار والوعظ والتذكير تحذيراً من إتيان الباطل والمنكر . . ويورد الصيغ الدالة على رضاه تعالى عن الفعل والفاعل إشعاراً بإباحة هذا الفعل أو بطلبه ، أو مقرونة بسخطه ومقته للفعل والفاعل إيذاناً بتجنب هذا

العمل المشين . وقد وضع الفقهاء لهذه الصيغ اصطلاحات فقهية هي : المباح ، والمندوب والواجب ، والمحرم والمكروه .

وقد استعان الفقهاء في التمييز بين هذه الأسماء بالعرف العربي الجاري في الاستعمال . وبما قارنها في القرآن الكريم من صيغ الوعد والوعيد والمديح والذم والدلالة على الطلب والنهي .

وسأورد نماذج من الأسلوب القرآني في طلب الفعل ، وفي إباحته ، وفي تحريمه لمعرفة كيفية استنباط الأحكام من القرآن الكريم :

أ ـ نماذج من الأسلوب القرآني في طلب الفعل :

١ ـ صريح الأمر : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[١] .

٢ ـ فعل الأمر أو المضارع المقرون باللام : نحو ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[٢] ونحو ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾[٣] .

٣ ـ الإخبار بأن الفعل مكتوب أو مفروض نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴾[٤] ونحو ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ ﴾[٥] وقوله سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ فِي أَزْوَاجِكُمْ ﴾[٦] .

٤ ـ الإخبار عن الفعل بأنه خير أو بر أو موصل للبر : كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾[٧] ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾[٨] ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[٩] .

---

(١) الآية (٥٨) من سورة النساء .
(٢) الآية (٤٣) من سورة البقرة .
(٣) الآية (٢٩) من سورة الحج .
(٤) الآية (١٠٣) من سورة النساء .
(٥) الآية (١٨٣) من سورة البقرة .
(٦) الآية (٥٠) من سورة الأحزاب .
(٧) الآية (٢٢٠) من سورة البقرة .
(٨) الآية (١٨٩) من سورة البقرة .
(٩) الآية (٩٢) من سورة آل عمران .

٥ ـ **وقوع الفعل جزاء للشرط** : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾(١) ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾(٢) .

ب ـ نماذج من الاسلوب القرآني في بيان الإباحة :

١ ـ **لفظ الحل** : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ﴾(٣) . ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾(٤) .

٢ ـ **نفي الإثم أو الجناح أو الحرج** : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾(٥) ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾(٦) . ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾(٧) ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾(٨) .

جـ ـ نماذج من الأسلوب القرآني في تحريم الفعل :

١ ـ **صريح النهي أو التحريم** : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾(٩) ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾(١٠) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾(١١) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾(١٢).

٢ ـ **صيغة النهي أو الأمر بالترك** : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ

---

(١) الآية (١٩٦) من سورة البقرة .
(٢) الآية (٢٨٠) من سورة البقرة .
(٣) الآية (١) من سورة المائدة .
(٤) الآية (٥) من سورة المائدة .
(٥) الآية (١٧٣) من سورة البقرة .
(٦) الآية (٦١) من سورة النور .
(٧) الآية (٢٤) من سورة النساء .
(٨) الآية (٢٣٥) من سورة البقرة .
(٩) سورة النحل الآية (٩٠) .
(١٠) الآية (٩) من سورة الممتحنة .
(١١) الآية (٢٣) من سورة النساء .
(١٢) الآية (٣) من سورة المائدة .

بِالْحَقِّ ﴾[1] ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾[2] ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾[3] .

٣ ـ **الإخبار بأن الفعل شر** أو ليس من البر ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾[4] ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾[5] .

٤ ـ **ذكر الفعل مقروناً بالوعيد** أو باستحقاق الإثم ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾[6] ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾[7] .

٥ ـ **نفي الفعل أو الحل** : ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[8] ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ﴾[9] .

أساس التشريع في القرآن الكريم :

لقد نزل القرآن الكريم على محمدﷺ لإصلاح أحوال الناس . وإخراجهم من الكفر إلى الهدى ومن الضلال إلى الإيمان ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ولذلك فإن الأحكام القرآنية رعت مصلحة العباد ، فنهتهم عن الخبائث وأباحت لهم الطيبات ، وأمرتهم بأوامر فيها خيرهم وإسعادهم في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾[10].

وقد قام التشريع الإسلامي في القرآن الكريم على أساسين يوضحان

---

(١) الآية (٣٣) من سورة الإسراء .
(٢) الآية (١٢٠) من سورة الأنعام .
(٣) الآية (٤٨) من سورة الأحزاب .
(٤) الآية (١٨٠) من سورة آل عمران .
(٥) الآية (١٨٩) من سورة البقرة .
(٦) الآية (٩٣) من سورة النساء .
(٧) الآية (١٨١) من سورة البقرة .
(٨) الآية (١٩٣) من سورة البقرة .
(٩) الآية (١٩) من سورة النساء .
(١٠) سورة الأعراف الآية / ١٥٧ .

المقاصد العامة للدين الإسلامي السمح :

أما الأساس الأول : فهو رفع الحرج .

وأما الثاني : فهو التدرج في التكاليف .

رفع الحرج : إن قاعدة رفع الحرج وإزالة الضيق قاعدة هامة وأساسية في التشريع ، حتى ان الفقهاء اعتبروها من أهم مقاصد الشريعة يجتهدون على ضوئها لما فيه مصلحة للعباد .

قال تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] .

وقال : ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾[2] .

وقال : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[3] .

التدرج في التشريع : جاء النبيﷺ والعرب قد استحكمت فيهم عادات منها ما هو صالح للبقاء ولا ضرر منه على تكوين الأمة ، ومنها ما هو ضار يريد الشارع إبعادهم عنه ، فاقتضت حكمته أن يتدرج بهم في التشريع شيئاً فشيئاً لبيان حكمه وإكمال دينه .

والمتأمل في كلا الحكمين لا يرى في الآخر إبطالاً للأول ويظهر ذلك في المثال التالي :

سئل رسول اللهﷺ عن الخمر والميسر وهما من العادات المستحكمة عندهم فأجابهم القرآن في سورة البقرة .

﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾[4] . فلم يصرح بطلب الكف عنهما ، وإن كان مغزى الآية يشعر بالنهي لأن ما كثر إثمه

---

(١) سورة الأعراف الآية / ١٥٧ .

(٢) سورة البقرة الآية / ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة الآية / ٢٨٦ .

(٤) سورة البقرة الآية / ٢١٩ .

حرم فعله ، ويقل أن يوجد خير مطلق أو شر مطلق ، فمدار التحليل والتحريم الغلبة والرجحان ، فإن كان إثمهما أكبر فهذا حث على الامتناع عنهما ولكن بطريق غير جازم ، وبناء على هذه الآية امتنع عن الخمر تُقاة النفوس .

ثم جاءت آية ثانية تصرح بالنهي عن الاقتراب إلى الصلاة في حالة السكر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾[1] وليس في هذا النهي ابطال للحكم الأول بل هو تأييد وتأكيد له .

ثم جاءت الآية الثالثة تصرح بالتحريم القاطع قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونْ . إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونْ ﴾[2] .

وهكذا فقد مر (تحريم الخمر) في مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : تبين أن الإثم راجح على المنفعة .

المرحلة الثانية : تبين أن الخمر محرم قبيل الصلاة ، ويجب أن يزول أثرها تماماً قبيل دخول وقت الصلاة ، ويتكرر دخول الوقت خمس مرات في اليوم والليلة . ولذلك هانت الخمر على الناس ، وامتنع كثير منهم عن تناولها .

المرحلة الثالثة : وحينما تهيأت النفوس لتلقي الحكم الجازم والحد الفاصل فيها نزل التحريم الصريح .

وبهذه الطريقة الحكيمة عالج القرآن العادات القبيحة المتأصلة في نفوس الجاهلين ، وقضى عليها واحدة تلو الأخرى .

هذا ولما كان نظر المجتهد يتعقب الأحكام الواردة في القرآن الكريم رأيت أن أبين أنواعها فيما يأتي :

---

(١) سورة النساء الآية / ٤٣ .

(٢) سورة المائدة الآية / ٩٠-٩١ .

أنواع الأحكام الواردة في القرآن الكريم :

لقد شملت أحكام القرآن الكريم جوانب الحياة الإنسانية جميعها ، ويمكن أن نسلسلها حسب الترتيب الآتي :

١ ـ أحكام اعتقادية ، تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في وحدانية الله وصفاته ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢ ـ أحكام خلقية : تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل والمكارم وما يتخلى عنه من الرذائل .

٣ ـ أحكام عملية : تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات . وهذا النوع يسمى (بفقه القرآن) . وهو مقصد الاجتهاد بصورة خاصة وأصول الفقه بصورة عامة .

والأحكام العملية في القرآن الكريم تتنوع إلى نوعين : **الأول** : أحكام العبادات من صلاة وصوم وحج ونذر ونحوها من العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه .

والثاني : أحكام المعاملات من عقود وتصرفات وغيرها مما يقصد بها تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض ، سواء أكانوا أفراداً أم أمماً أم جماعات .

ويطلق على هذه الأحكام في الاصطلاح الشرعي أحكام المعاملات ، وأما في اصطلاح العصر الحديث فقد تنوعت أسماؤها بحسب ما تتعلق به وما يقصد منها إلى الأنواع التالية :

١ ـ أحكام الأحوال الشخصية وهي التي تتعلق بالأسرة من بدء تكونها ، ويقصد بها تنظيم علاقة الزوجين والأقارب .

٢ ـ الأحكام المدنية وهي التي تتعلق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم من بيع وإجارة ورهن وكفالة وشركة ومداينة ، ويقصد بها تنظيم علاقات الأفراد المالية وحفظ حق كل ذي حق .

٣ ـ الأحكام الجنائية ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم .

٤ ـ أحكام المرافعات وهي التي تتعلق بالقضاء والشهادة واليمين ويقصد بها تنظيم الإجراءات لتحقيق العدل بين الناس .

٥ ـ الأحكام الدستورية وهي التي تتعلق بنظام الحكم وأصوله ، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم .

٦ ـ الأحكام الدولية وهي التي تتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها من الدول ، وبمعاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، ويقصد بها تحديد علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول في السلم والحرب .

٧ ـ الأحكام الاقتصادية والمالية ، ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية .

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم ذكر أحكاماً تفصيلية في العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية والمواريث ، لأن معظم هذه الأحكام تعبدي ولا مجال للعقل فيه ، وهي لا تتغير بتغير الأزمان والبيئات .

وأما ما سوى ذلك من الأحكام فالقرآن الكريم قد وضع لها قواعد عامة ومبادىء أساسية ، ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا في النادر لأن هذه الأحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح ، فترك المجال متسعاً لولاة الأمور وللعلماء المجتهدين للنظر فيها في كل عصر ليفصلوا الأنظمة حسب المصالح وعلى ضوء تلك القواعد[1] .

دلالة القرآن الكريم بين القطعية والظنية :

نصوص القرآن الكريم قطعية من جهة ورودها وثبوتها ونقلها عن الرسول ﷺ إلينا ، أي نجزم ونقطع بأن كل نص نتلوه من نصوص القرآن هو نفسه الذي أنزله الله على رسوله ، وبلغه المعصوم ﷺ إلى أصحابه فحفظه من حفظ .

وقد كانت ملكة الحفظ قوية لدى العرب حتى أنهم استغنوا بها عن الدواوين وعن كتابة تاريخ الحوادث . وكتبها كتاب الوحي مرتبة كما بلغ محمد ﷺ عن ربه

---

(١) انظر تفصيل هذا المبحث في كتاب : أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٣٢ ـ ٣٤ ، تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ السايس وزميله ص ٤٤ ـ ٥٣ ، تاريخ التشريع للشيخ الخضري ص ٢٩ ، تاريخ التشريع الإسلامي للدكتور أحمد شلبي ص ١٣٦ ـ ١٤١ .

تبارك وتعالى . وتناقل المسلمون القرآن كتابة من المصحف المدون الذي جمع في عهد أبي بكر ثم في عهد عثمان ، وتلقوه من الحفاظ جيلاً عن جيل ، وما اختلف المكتوب منه والمحفوظ ، ولا اختلف في لفظة واحدة على اتساع رقعة البلاد الإسلامية واختلاف الشعوب لوناً ولهجة وبيئة .

وهذا هو سر القرآن العظيم وهذا هو إعجازه البليغ ، وتصديق لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

أما من جهة الدلالة فهناك نصوص قطعية الدلالة وهي ما تعين المراد منها دون أن تحتمل تأويلاً مغايراً أو فهماً مخالفاً مثل قول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾[2] .

فهذا قطعي الدلالة على أن فرض الزوج في هذه الحالة النصف لا غير . . ومثل قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[3] .

فهذا النص قطعي الدلالة على أن حد الزنا مائة جلدة لا أكثر ولا أقل .

ومثل هذا كل نص دل على فرض مقدر في الإرث ، أو حد معين في العقوبة ، أو نصاب محدد .

وهناك نصوص ظنية الدلالة وهي ما دلت على معنى مع احتمال التأويل ، وصرفه إلى معنى مغاير للمعنى الأول ، مثل قول الله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يتربصن بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[4] فلفظ قرء في اللغة العربية مشترك بين معنيين ، فهو يطلق على الطهر ويطلق على الحيض ، والنص دل على أن المطلقات يتربصن ثلاثة قروء ، فيحتمل أن يراد ثلاثة أطهار ، ويحتمل أن يراد ثلاثة حيضات . فالنص هنا ليس بقطعي الدلالة على معنى واحد بل هو ظني الدلالة لقيام احتمال المعنيين . ولهذا اختلف المجتهدون في عدة المطلقة ذات القرء : أهي ثلاث حيضات أم هي ثلاثة أطهار ؟

---

(١) سورة الحجر الآية / ٩ .
(٢) سورة النساء الآية / ١٢ .
(٣) سورة النور الآية / ٢ .
(٤) سورة البقرة الآية (٢٢٨) .

وفي النصوص الظنية الدلالة مجال لنظر المجتهد : هل اللفظ مستعمل على الحقيقة أم على المجاز ، وهل هو مشترك بين معنيين أم أكثر ؟

وهل اللفظ عام أم أنه خاص ، واذا كان عاما فهل من نص آخر يخصصه ؟ وهل هو مطلق وهل يوجد ما يقيده . . فهذا يدل على معنى ويحتمل الدلالة على غيره . .

السنة النبوية
المصدر الثاني للشريعة الإسلامية

١ ـ تعريف السنة في اللغة والاصطلاح

٢ ـ أقسام السنة باعتبار السند

٣ ـ أقسام السنة باعتبار ما يصدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام

٤ ـ نسبة السنة للقرآن الكريم

٥ ـ مكانة السنة في التشريع

السنة في اللغة :

الطريقة ، والسيرة ، حميدة كانت أو ذميمة ، والجمع سنن ، مثل غرفة غرف .

ويقال : سننت السكين سناً (من باب قتل) : أحددته ، وسننت الماء على الوجه : صببته صباً سهلاً ، والسنن : الوجه من الأرض ، وفيه لغات ، أجودها بفتحتين .

ويقال : تنح عن سنن الطريق وعن سنن الخيل أي عن طريقها[1] ، وسن الإبل ساقها سريعاً ، وسن الغنم : أرسله في الرعي أو أحسن القيام عليه ، حتى كأنه صقله .

وسن الأمر بيَّنه ، وسن الشيء صوره ، وسن الماء صبه ، وسن الطريقة سار عليها[2] .

فالكلمة موضوعة في اللغة للاستعمال المادي والمعنوي ، وتعرف بالقرينة .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[3] .

وقال جل شأنه : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾[4] .

وقال عز من قائل : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾[5] .

وقال عز جلاله : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ﴾[6] .

قال رسول الله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من

---

(١) المصباح المنير ١/٣١٢ .

(٢) القاموس المحيط ٤/٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية / ١٣٧ .

(٤) سورة الإسراء الآية / ٧٧ .

(٥) سورة الأنفال الآية / ٣٨ .

(٦) سورة الأحزاب الآية / ٦٢ .

عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[1] .

السنة في صدر الإسلام ولسان الشرع :

« وقد اقتبسها علماء الإسلام من القرآن واللغة واستعملوها في معنى أخص من المعنى اللغوي ، وهي بحسب استعمالهم الطريقة المعتادة في العمل بالدين ، أو بعبارة أخرى في الصورة العملية التي بها طبق النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أمر القرآن الكريم على حسب ما تبين لهم من دلالة القرآن ومقاصده .

ويقرب منها في المعنى : كلمات السبيل ، الصراط ، الطريقة ، الطريق المستقيم .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُوْلَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾[2] .

وقال عز شأنه : ﴿ وَاللهُ يَدْعُوْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾[3] وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيْ رَسُوْلِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[4] .

وقال جلا وعلا : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَىٰ الطَّرِيْقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ﴾[5] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ قَالُوْا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيْ إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيْقٍ مُسْتَقِيْم ﴾[6] وقال جلت قدرته : ﴿ وأَنَّ هَذَا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيْماً فَاتَّبِعُوهُ ﴾[7] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .
(٢) سورة النساء الآية / ١١٥ .
(٣) سورة يونس الآية / ٢٥ .
(٤) سورة الأحزاب الآية / ٢١ .
(٥) سورة الجن الآية / ١٦ .
(٦) سورة الأحقاف الآية / ٣٠ .
(٧) سورة الأنعام الآية / ١٥٣ .

وبهذا المعنى عرفت كلمة السنة في صدر الإسلام ، وقد وردت مقترنة بالكتاب في وصايا الرسول في قوله عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنة رسوله »[1] .

والسنة المقرونة بالكتاب والتي يكون التمسك بها كالتمسك بالكتاب في الوقاية من الضلال ، ليست إلا الطريقة العملية المطردة التي نقلت عن الرسول عليه الصلاة والسلام نقلاً متواتراً عملياً معروفاً عند الكافة ، ومن الوصايا بها على هذا المعنى ما ورد في أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي »[2] . وقوله عليه الصلاة والسلام : « من رغب عن سنتي فليس مني »[3] .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في المجوس : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب »[4] أي اسلكوا في معاملتهم الطريقة التي اتبعت مع أهل الكتاب ، وهذا في الجزية خاصة .

ويقابل كلمة (سنة)على هذا الاصطلاح كلمة (بدعة) التي فسرها النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[5] . ويقرب منها في هذا المعنى كلمة (سبيل) الواردة في عبارتي سبيل المفسدين ، وسبيل المجرمين ، الواردتين في قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِيْنَ سَبِيْلُ الْمُجْرِمِيْنَ ﴾[6] وقوله عز شأنه : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيْلَ الْمُفْسِدِيْنَ ﴾[7] .

السنة في اصطلاح الفقهاء :

أما السنة في اصطلاح الفقهاء فقد أخذت معنى جديدا ، إذ أنها أخذت تطلق على ما يقابل الواجب من العبادات ، وهو الصفة الشرعية للفعل المطلوب

(١، ٢) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٦٠ .

(٣) نيل الأوطار ج ٦ ص ١١٣ .

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٣٠ .

(٥) انظر مشكاة المصابيح ج ٣ ص ٨١٠ .

(٦) سورة الأنعام الآية / ٥٥ .

(٧) سورة الأعراف الآية / ١٤٢ .

طلباً غير جازم بحيث يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه ، وهي بهذا الإطلاق ترادف المندوب ، وتقابل الواجب والمحرم والمكروه والمباح[1] .

قال عضد الدين : وهي عند الفقهاء النافلة في العبادات[2] .

وفي فقه الحنفية : (ما واظب على فعله مع ترك ما بلا عذر)[3] فقالوا مع ترك ما بلاعذر ليخرج الواجب الذي ليس لتركه رخصة بلا عذر ، وعقب ابن أمير الحاج على هذا التعريف بقوله : ولا يخفى عدم شموله لجميع المسنونات .

ثم إن الفعل الذي لم يواظب الرسول عليه الصلاة والسلام على فعله ينقسم إلى مندوب ومستحب ، وإن لم يفعله بعدما رغب فيه[4] .

في اصطلاح الأصوليين :

السنة عند علماء الأصول هي ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير[5] .

وقيد محمد أمين أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام بأنها مما ليس من الأمور الطبيعية[6] . ثم إن من علماء الأصول ـ كالبيضاوي ـ من لم يذكر التقرير لدخوله في الفعل[7] . لأنه كف عن الإتيان والكف فعل .

وقيل : القول فعل أيضاً ، فلو تركه من التعريف لكان جائزاً ، اللهم إلا أن يقال : اشتهر إطلاق الفعل مقابلاً له فيجب ذكره دفعاً لتوهم الاقتصار عليه[8] .

ووسع الحنفية ـ رحمهم الله ـ دائرة السنة في الاصطلاح الشرعي ، فأدخلوا فيها سنة الصحابة بعد رسول الله ﷺ[9] ، واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ « عليكم

---

(١) تيسير التحرير لمحمد أمين ٣/ ١٩ ـ ٢٠ بتصرف .
(٢) شرح مختصر ابن الحاجب ج ١ ص ٢٢ .
(٣) التحرير للكمال بن الهمام .
(٤) التقرير والتحبير لابن أمير الحاج ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٥) مختصر ابن الحاجب مع شرح العضد ١/ ٢٢٢ .
(٦) تيسير التحرير ٣/ ١٩ .
(٧) المنهاج للبيضاوي مع شرح الأسنوي ٢/ ١٩٤ .
(٨) التقرير والتحبير لابن أمير الحاج ٢/ ٢٢٢ .
(٩) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي ج ٣ص ٦٧٩ ، أصول السرخسي ١/ ١١٣ .

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ » .

قال السرخسي : « والمراد بالسنة شرعاً : ما سنه رسول الله ﷺ فقط » .

وأطلق السلف السنة على طريقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكانوا يأخذون البيعة على سنة العمرين (أبي بكر وعمر)[1] .

وكانت السنة بالمعنى الاصطلاحي المصدر الثاني للتشريع تستنبط منها الأحكام كما تستنبط من المصدر الأول ، وهو القرآن الكريم ، ويرجع إليها في فهم المراد من كتاب الله تبارك وتعالى ، ولهذا السبب قيل : إن أصول الشرع هما القرآن والسنة . وأما ما سواهما من أصول فهي مظهرة ومبينة لأحكام الله ، لا منشئة كالقياس والاستصحاب .

ويمكننا أن نقسم السنة باعتبارين :

الاعتبار الأول من حيث السند .

والاعتبار الثاني من حيث ما يصدر عن النبي عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير .

التقسيم الأول باعتبار السند :

تنقسم السنة بهذا الاعتبار عند الجمهور إلى قسمين :

الأول : السنة المتواترة .

والثاني : سنة الآحاد سواء أكان خبر الواحد مستفيضاً وهو الذي زادت رواته على ثلاثة كما قرر ابن الحاجب والآمدي[2] ، وغير المستفيض وهو المشهور ، وهو ما رواه الثلاثة فأقل ثم اشتهر ولو في القرن الثاني أو الثالث ، إلى حد ينقله ثقات لا يتوهم تواطؤهم على الكذب[3] ويهمنا هنا أن نعرف كلاً من

---

(١) أصول السرخسي ١١٤/١ .

(٢) مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب مع حاشية السعد ٥٥/٢ ، الأحكام للآمدي ٣١/٢ .

(٣) المستصفى للغزالي ٩٣/١ ، إرشاد الفحول للشوكاني ص ٤١ .

المتواتر والآحاد ، ونبين ما يفيداه :

أولاً : السنة المتواترة أو الحديث المتواتر :

التواتر في اللغة : هو التتابع ، يقال : تواترت الخيل : إذا جاءت يتبع بعضها بعضاً ، ومنه (جاؤوا تترى) أي متتابعين ، وتراً بعد وتر ، والوتر الفرد[1] .

أما تعريفه في الاصطلاح ، فقد عرف تعريفات متعددة نختار منها ما قاله البزدوي : (هو الذي اتصل بك من رسول الله لْا اتصالاً بلا شبهة حتى صار كالمعاين المسموع منه ، وذلك بأن يرويه قوم لا يحصى عددهم ، ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم ، ويدوم هذا الحد فيكون آخره وأوسطه كطرفيه ، وذلك مثل نقل القرآن الكريم والصلوات الخمس ، وأعداد الركعات ومقادير الزكاة ، وما أشبه ذلك[2] .

ونأخذ من هذا التعريف شروط المتواتر وهي :

١ ـ تعدد النقلة بحيث يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب لاختلاف مشاربهم وبلدانهم .

٢ ـ صلة الإسناد .

٣ ـ أن يستوي في ذلك الطرفان والوسط ، بأن يحدث المشاهدون أنهم شاهدوا ، وهم جمع يؤمن تواطؤهم عن الكذب ، وينقل عنهم أنهم شاهدوا مثلهم حتى يصل إلينا[3] .

وهذا القسم يوجب علم اليقين بمنزلة العيان علماً ضرورياً .

ثانياً : السنة المشهورة أو الحديث المشهور : وهو ما كان أحادي الأصل ثم انتشر واشتهر في القرن الثاني والثالث ونقله قوم لا يتوهم تواطؤهم على الكذب ، وأولئك قوم ثقات أئمة لا يتهمون ، فصار بشهادتهم وتصديقهم قريباً من

---

(١) المصباح المنير ٢/ ٣٢١ .

(٢) أصول البزدوي ٢/ ٦٨٠ ـ ٦٨١ .

(٣) الأحكام للآمدي ٢/ ٢٥ .

المتواتر مفيداً للطمأنينة فيكون حجة من حجج الله ، قال عيسى بن أبان : إن المشهور من الأخبار يضلل جاحده ولا يكفر ، مثل حديث المسح على الخفين وحديث الرجم ، وهو الصحيح عند الحنفية ، لأن المشهور بشهادة السلف صار حجة للعمل به كالمتواتر فصحت الزيادة به على كتاب الله تعالى ، وهو نسخ عند الحنفية ، وتخصيص عند الشافعية .

وذلك مثل زيادة الرجم والمسح على الخفين والتتابع في صيام كفارة اليمين ، لكنه لما كان في الأصل من الآحاد ثبت به شبهة فسقط به علم اليقين ، ولم يستقم اعتباره في العمل فاعتبر في العلم .

وهو يفيد علم الطمأنينة لا علم اليقين[1] .

القسم الثالث : خبر الواحد : وهو كل خبر يرويه الواحد أو الاثنان فصاعداً ، لا عبرة للعدد فيه بعد أن يكون دون المشهور والمتواتر ، وهذا يوجب العمل ولا يوجب العلم يقيناً[2] .

وقد يفيد العلم بواسطة القرائن ، ولا يفيده مجرداً عنها[3] .

التقسيم الثاني باعتبار ما يصدر عن الرسول ﷺ ، فإن السنة تقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : السنة القولية : وهي الأحاديث التي قالها رسول الله ﷺ في مختلف الأغراض والمناسبات ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات »[4] وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار »[5] . وقوله ﷺ : « لا وصية لوارث »[6] ونقلت إلينا تلك الأحاديث إما بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد .

---

(١) أصول البزدوي مع كشف الأسرار لعبد العزيز البخاري ٢/ ٦٨٨ - ٦٩٠ .

(٢) أصول البزدوي مع كشف الأسرار لعبد العزيز البخاري ٢/ ٦٨٨ - ٦٩٠ .

(٣) الاحكام للآمدي ٢/ ٣٢ .

(٤) متفق عليه ، انظر البخاري ج ١ ص ٢١ .

(٥) رواه مالك في موطئه وابن ماجه والدار قطني .

(٦) مشكاة المصابيح ج ٢ ص ٨٦ .

القسم الثاني : السنة الفعلية : وهي الأعمال التي قام بها عليه الصلاة والسلام على وجه البيان ، لما ورد في القرآن الكريم ، والتبليغ عن الله تبارك وتعالى للأمة الإسلامية .

مثل أداء الصلوات الخمس ، وأداء شعائر الحج .

وقد تكلم الأصوليون ـ رحمهم الله تعالى ـ بتفصيل عن أفعال الرسولﷺ ، وسأوجز الكلام فيها بما يتلاءم مع طبيعة البحث .

إن أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ ـ **القسم الأول** : ما صدر عنهﷺ من أفعال الجبلية كالأكل والشرب ، والنوم واللبس ، وماشاكلها .

٢ ـ **القسم الثاني** : ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من أفعال خاصة به كزواجه أكثر من أربع ، وجواز النكاح بغير مهر ، ومواصلة الصوم .

٣ ـ **القسم الثالث** : ما صدر عن النبي عليه الصلاة والسلام بقصد القربى لله تعالى : كالصلاة والصوم ، والصدقة وما ماثلها .

٤ ـ ما صدر عنهﷺ كالبيع والمزارعة ، والمعاملة وغيرها .

حكم الاقتداء بأفعالهﷺ :

١ ـ الأفعال التي لا تتعلق بالعبادات ووضح فيها أمر الجبلة ، فإنها تفيد الاباحة ، وليس فيها أمر باتباع ولا نهي عن مخالفة .

٢ ـ ماعلم اختصاصه بهﷺ ، وثبتت الخصوصية بالدليل كجواز النكاح من غير مهر أو الزيادة على أربع ، فليس لأمته وجوب الاقتداء به ، وإن لم تثبت الخصوصية لهﷺ بالدليل كصلاة الضحى والتهجد ، فيستحب لأمته الاقتداء به لأنها عبادة وقربى إلى الله تعالى .

٣ ـ الفعل المجرد مما سبق : يعتبر دليلاً في حق الأمة وواجبا عليها[1] .

---

(١) إرشاد الفحول للشوكاني ص ٣٥ وما بعدها .

نسبة السنة المطهرة للقرآن الكريم :

لقد أبان الشافعي ـ رحمه الله ـ نسبة السنة إلى القرآن من جهة ما ورد فيها من أحكام فقال :

إما أن تكون السنة مقررة ومؤكدة حكماً جاء في القرآن الكريم ، أو مبينة وشارحة له ، أو للاستدلال بها على النسخ ، أو منشئة حكماً سكت عنه القرآن[1] .

فهذه صور أربع هي :

الصورة الأولى : أن تكون السنة مقررة ومؤكدة لحكم ورد في القرآن ، وعندئذ يكون للحكم مصدران ودليلان ، مثل الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت ، والنهي عن الشرك بالله ، وشهادة الزور وعقوق الوالدين ، وقتل النفس بغير حق والنهي عن أكل مال الغير .

كقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه »[2] .

فإنه مؤيد لقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾[3] .

وكقوله عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا »[4] .

فإنه موافق لقوله عز وجل : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[5] .

الصورة الثانية : أن تكون السنة مبينة للقرآن الكريم ، وهذا البيان على أوجه :

---

(١) انظر : الرسالة للشافعي ص ٦٤ ، ٨٥ ، ١١٣ ، ١٦٧ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٧٢ ، صحيح البخاري كتاب الوصايا جـ ٨ ، وروى بمعناه مسلم وابن ماجه .

(٣) سورة النساء الآية / ٢٩ .

(٤) مشكاة المصابيح ج ٢ ص ١٦ .

(٥) سورة النساء الآية ١٩ .

الأول : أن تبين السنة مجمل القرآن الكريم ، مثل الأحاديث التي فصلت كيفية إقامة الصلاة وأدائها على الوجه المطلوب من قيام وركوع ، وسجود وتكبيرات ، وتسبيحات وقراءات ، فإنها مبينة لمجمل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ .

ومثل الأحاديث التي فصلت فريضة إيتاء الزكاة ، فذكرت الأموال التي تجب فيها الزكاة وأنصبتها ووضحت شروطها . .

وغير ذلك من العبادات والمعاملات التي أجملها الكتاب الكريم ، وتناولتها السنة بالتوضيح والتبيين .

والثاني : أن تخصص السنة عام القرآن مثل قول الرسول ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة اختها »[1] فإنه مخصص لقول الله تعالى بعد ذكر المحرمات من النساء : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾[2] .

ومثل حديث : « لا يرث القاتل »[3] فإنه مخصص لآيات المواريث في سورة النساء وهو قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾[4]

الثالث : أن تقيد السنة مطلق القرآن ، أو تبين المراد منه عند الاحتمال مثل تكرار الغسل لأعضاء الوضوء ووجوب غسل المرفقين ، فإنه مبين للمراد من الإطلاق في قول الله تعالى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾[5] فالآية تحتمل تكرار الغسل وعدمه ، كما تحتمل دخول المرفقين في الغسل .

الرابع : البيان بطريق القياس على ما ورد في الكتاب ، وذلك راجع إلى دلالة القرآن ، فإن النص القرآني المقرر لحكم الأصل ، وإن كان خاصاً به في

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن .
(٢) سورة النساء الآية / ٢٤ .
(٣) رواه ابن ماجه والدرامي في كتاب الفرائض .
(٤) سورة النساء الآية / ١١ .
(٥) سورة المائدة الآية / ٦ .

الصورة ـ فهو عام في المعنى من حيث عموم العلة ، ومن أمثلة ذلك :

أولاً : إن الله حرم الربا ورد على أهل الجاهلية قولهم : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ بقوله سبحانه : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[1] وكان الربا الشائع عندهم هو فسخ الدين في الدين . يقول الطالب : إما أن تقضي وإما أن تربي . ولما كان المنع فيه من قبل كونه زيادة بلا عوض ألحقت السنة به كل ما فيه زيادة بهذا المعنى .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد »[2] .

ثانياً : بين القرآن الكريم بعض المحرمات من الرضاعة بقوله : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ﴾[3] فألحقت السنة بهما سائر القرابات بالرضاعة من اللاتي كن يحرمن بالنسب كالعمة والخالة ، وبنت الأخ وبنت الأخت ، وهذا الإلحاق بطريق القياس من باب نفي الفارق بين الأصل والفرع .

ثالثاً : إن الله تبارك وتعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث ، وقال جل شأنه : ﴿ قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُوْنَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوْحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيْرٍ ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، أَوْ فِسقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾[4] .

فألحقت السنة بالمحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ، وفي الحديث : « إن النبي ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير »[5] . كما نهى ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية[6] .

---

(١) سورة البقرة الآية / ٢٧٥ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٣) سورة النساء الآية / ٢٣ .

(٤) سورة الأنعام الآية / ١٤٥ .

(٥) رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي ، انظر نيل الأوطار (٨/ ٢٨٤) ، شرح الزرقاني على الموطأ ٣/ ٩٠-٩١ .

(٦) متفق عليه انظر نيل الأوطار ٨/ ٢٨١ ، شرح الزرقاني على الموطأ ٣/ ٩٢ .

وألحقت السنة بالطيبات : الضب[1] والأرنب[2] فهذا الإلحاق بيان بطريق القياس .

رابعاً : إن الله عز وجل حرم الزنا ، وأحل التزويج وملك اليمين ، وسكت عن النكاح المخالف للمشروع ، فإنه ليس بنكاح محض ولا سفاح محض كما في النكاح بغير ولي ، فقالﷺ : « أي امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل . فإن دخل بها فلهاالمهر بما استحل منها »[3] .

فهذا إلحاق مسكوت بمنطوقَ .

الخامس : البيان بطريق التفريع على القواعد العامة المستنبطة من أدلة القرآن المختلفة ، وهذا شبيه بما يسمى المصالح المرسلة والاستحسان ومن أمثلة ذلك :[4]

وقال سبحانه : ﴿ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾[5] .

وقال جل شأنه : ﴿ لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾[6] ونهى تعالى في أكثر من موضع من القرآن الكريم عن التعدي على الأنفس والأموال والأعرض ، كما نهى تعالى عن الغصب والظلم .

ثانيا : وقولهﷺ : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »[7] .

وقوله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[8] .

فإنهما يرجعان إلى سد الذرائع المقرر أصله في القرآن الكريم بقوله

---

(١) عن ابن عمر قال سئل النبيﷺ عن الضب فقال لست بآكله ولا محرمه متفق عليه . انظر نيل الأوطار ٨/ ٢٨٧ ، سنن الدارمي ٢/ ٩٢ .

(٢) انظر نيل الأوطار ٨/ ٢٩٠ ، سنن الدرامي ٢/ ٩٢ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي ، الموافقات للشاطبي ٤/ ٣٢ - ٢٨ .

(٤) البقرة الآية / ٢٣١ .

(٥) سورة الطلاق الآية / ٦ .

(٦) سورة البقرة الآية / ٢٣٣ .

(٧) سنن الدارمي ٢/ ٢٤٥ ، رواه البخاري في كتاب الايمان والبيوع ، ومسلم في المساقاة ، وأبو دواد والترمذي ، والنسائي في البيوع .

(٨) سنن الدارمي ٢/ ٢٤٥ ، رواه البخاري في كتاب البيوع والترمذي في القيامة وأحمد في مسنده .

تعالى : ﴿ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾[1] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[2] .

الصورة الثالثة : أن يستدل بالسنة على ناسخ القرآن ومنسوخه ، وهذا على مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ الذي لا يقول نسخ القرآن بالسنة لقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾[3] فإنَّ فعل « نأت » يدل على أن الآتي بالخبر أو المثل هو الله تعالى ، وذلك لا يكون إلا إذا كان الناسخ هو القرآن ، وأن كلمتي (بخير أو مثلها) تقتضيان كون البدل خيراً من الآية المنسوخة أو مثلاً لها ، والسنة ليست كذلك ، ولكن السنة هي التي تبين نسخ القرآن للقرآن ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

فهذه الآية منسوخة بآيات المواريث غير أن معرفة هذا النسخ كان بالسنة . وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لا وصية لوارث »[5] .

وقد خالف في ذلك جمهور العلماء ، ومن الشافعية البيضاوي والأسنوي حيث قرروا أن السنة قد تأتي ناسخة لبعض آيات من القرآن الكريم ومثلوا له بحديث « لا وصية لوارث » فإنه نسخ حكم آية الوصية « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت » الآية . وليس الناسخ هو آية المواريث إذ لا تنافي بينها وبين آية الوصية للأقربين ، فإن الأولى في ثلثي المال والوصية تنفذ في الثلث .

ويمكن القول : إن السلف كانوا يطلقون النسخ على كل من التخصيص والنسخ ، فليس بلازم أن يكون مراد الشافعي النسخ الذي هو الرفع والإزالة ،

---

(١) سورة النور الآية / ٣١ .

(٢) سورة الفتح الآية / ٢٥ .

(٣) الآية (١٠٦) من سورة البقرة .

(٤) الآية (١٨٠) من سورة البقرة .

(٥) رواه البخاري وأبو داود ، والترمذي والنسائي ، وابن ماجة والدارمي ، في الوصايا (مع اختلاف يسير في الألفاظ) .

ولعل الذي يؤيد ذلك قوله في أصول مذهبه : (الأصل : كتاب أو سنة) .

الصورة الرابعة : أن تكون السنة مثبتة ومنشئة حكماً سكت عنه القرآن الكريم ، فيكون هذا الحكم ثابتاً بالسنة ولا يدل عليه نص من القرآن ، مثل الأخبار التي تدل على رجم الزاني المحصن[1] ، والحكم بشاهد ويمين[2] ، وتحريم لبس الذهب والحرير على الرجال ، وصدقة الفطر[3] ، وتحريم لحم الحمر الأهلية[4] ، وفكاك الأسير[5] ونحو ذلك .

يتبين مما تقدم أن السنة راجعة إلى القرآن الكريم رجوع الشرح للمشروح والمبين للمجمل ، كما أنها قد تستقل بتشريع أحكام غير منصوص عليها في القرآن الكريم ما كان لنا أن نهتدي إليها بعقولنا ، ولو هدي الرسالة ما انكشف لنا قريبها فضلاً عن بعيدها[6] .

ومن هذا نعلم أنه لا يمكن أن يقع بين أحكام القرآن والسنة تخالف أو تعارض .

مكانة السنة في التشريع :

تأتي السنة المطهرة في المرتبة التالية للقرآن الكريم من حيث الاحتجاج بها

---

(١) عن ابن عباس قال : قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : « إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، وكان فيما أنزل آية الرجم فقرأناها ووعيناها وعقلناها ، ورجم رسول الله ﷺ ، ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله عز وجل فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ، ألا وإن الرجم حق إذا أحصن الرجل وقامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف . (السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٢١١ ، سنن الدارمي ١/ ١٧٩) .

(٢) روى مالك عن جعفر الصادق بن محمد عن أبيه (محمد بن علي بن الحسين) أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد . (شرح الزرقاني على موطأ مالك ٣/ ٢٨٩) .

(٣) عن ابن عمر قال (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين) رواه الجماعة . نيل الأوطار ٤/ ٢٤٩ .

(٤) (نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخص في الخيل) رواه الشيخان . شرح الزرقاني على موطأ مالك ص ٢/ ٩٢ ، وفي نيل الأوطار (حرم رسول الله ﷺ الحمر الأهلية) متفق عليه ٨/ ٢٨١ .

(٥) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : فكوا العاني وأطعموا الجائع ، سنن الدارمي ٢/ ٢٢٣ . وفكاك الأسير في صحيح البخاري كتاب المعلم الحديث ص ٣٩ ، والجهاد الحديث/ ١٧١ ، والديات ٢٤ ، ٣١ ، والترمذي / كتاب الديات الحديث / ١٦ ، والنسائي كتاب القامة الحديث / ١٤ .

(٦) انظر إرشاد الفحول للشوكاني ص ٣٣ ، الموافقات ٤/ ٢٧ - ٣٧ .

والرجوع إليها وأخذ الأحكام منها أي أن المجتهد لا يرجع إلى السنة للبحث عن واقعة إلا إذا لم يجد في القرآن الكريم حكم ما أراد معرفة حكمه ، لأن القرآن الكريم أصل التشريع ومصدره الأول ، فإذا نص على حكم اتبع وإذا لم ينص على حكم الواقعة رجع إلى السنة . فإن وجد فيها حكمه اتبع .

والدليل على ذلك أمور :

الأول : إن الكتاب الكريم مقطوع به ، والسنة مظنونة ، والقطع فيها إنما يصح في الجملة لا في التفصيل ، بينما القرآن الكريم فإنه مقطوع به جملة وتفصيلا . والمقطوع مقدم على المظنون ، فلزم تقديم الكتاب على السنة .

الثاني : إن السنة إما بيان للكتاب أو زيادة عليه ، فإن كانت بياناً فهي تلي القرآن في المرتبة لأن المبين مقدم على البيان ، وإن لم تكن بياناً وإنّما كانت زيادة ، فلا بد أيضاً من تقديم المزيد عليه على الزيادة ، وبهذا الاعتبار يقدم القرآن الكريم .

الثالث : ما دل على ذلك من الأخبار والآثار كحديث معاذ : حينما سأله الرسول ﷺ ـ وقد أرسله والياً على اليمن ـ « بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي »[1] .

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كتب إلى شريح : « إذا أتاك أمر فاقض بما في كتاب الله ، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله فاقض بما سن فيه رسول الله ـ ﷺ »[2] وفي رواية عنه : « انظر ما تبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبين لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ » .

وورد مثله عن ابن مسعود : « من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله فإن جاءه ما ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه ﷺ »[3] .

وعن ابن عباس أنه كان إذا سئل عن شيء فإن كان في كتاب الله قال به ،

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأقضية الحديث (٦) .

(٢،٣) اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ج ١ ص ٢٠٢ ، الموافقات للشاطبي ٨/٤ .

وإن لم يكن في كتاب الله وكان عن رسول الله ﷺ قال به .

وعلى هذا سار السلف الصالح من العلماء . . وللصحابة رضوان الله عليهم آثار جمة من هذا القبيل .

وقد فرق الحنفية بين الفرض والواجب بناء على تقديم اعتبار الكتاب على اعتبار السنة . وأن اعتبار الكتاب أقوى من اعتبار السنة ، وقد لا يخالف غيرهم في معنى تلك التفرقة .

فإن اعتُرض على هذا بأن السنة تقدم على القرآن الكريم لأنها تقيد المطلق وتخص العام ، والمقيد والخاص مقدمان على المطلق والعام .

فالجواب : ليس معنى ذلك العمل بالسنة وإطراح الكتاب ، بل إن الموضح في السنة هو المراد ، فكأن السنة بمنزلة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب .

وقد دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾[1] فبالسنَّة يحصل البيان ، مثال ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾[2] . فإنه حكم عام يوجب القطع على كل من ارتكب جريمة السرقة ، فكان محتاجاً إلى بيان المحل الذي تقطع منه اليد ، ومحتاجاً إلى بيان الشروط التي إذا تضافرت مجتمعة وجب تنفيذ هذا الحد ، فجاءت السنة المطهرة مبينة أن القطع من الكوع ، وأن للمسروق شروطاً : كأن يبلغ نصاباً فأكثر ، وأن يكون في حرز مثله . .

وهذا البيان هو المعنى المراد من الآية الكريمة ، وليس ثمة أحد يقول إن السنة أثبتت هذه الأحكام دون القرآن الكريم ، كما إذا بين لنا مالك ـ رحمه الله ـ أو أحد المفسرين معنى آية أو حديث ، فعملنا بمقتضاه ، فلا يصح لنا أن نقول : إنا عملنا بقول المفسر الفلاني دون أن نقول عملنا بقول الله تعالى أو قول رسول الله ﷺ ، وكذا هنا ، فلا يقال إن السنة مقدمة على القرآن ، بل مبينة له .

---

(١) سورة النحل الآية / ٤٤ .

(٢) سورة المائدة الآية / ٣٨ .